أحمد الغزّي

حفلةُ وفاةٍ

لكل جديد وقديم وكل ما هو نادر
من من كتب ومجلات ومجلدات
تابعوا موقعنا
#دوده_الكتب
اضغط علي اي جزء من الصوره
للدخول الى الموقع

لكل جديد وقديم وكل ما هو نادر
من كتب ومجلات تابعونا

t.me/book100100

book100100

حَفْلَةُ وَفاةٍ

إهْداءٌ

إلى الأُنثى الأنموذج؛ التي
وُجِدَتْ لتُعشَقْ،
والتي تَنضحُ حُبًا، تلك التي لم
تُخلقْ بعد!

قلبٌ أصَمّ!

يستعد كعادته كلّ ليلة، يحلق ذقنه بعناية، يلبس أفخر ثيابه، يسرّح شعره، يريق عليه أجمل عطوره. يُمضي ساعاته قبل الموعد أمام المرآة التي سئِمتْ منه، يدقِق في كلِّ تفاصيله، يتأكّد من عدَّته، ينظر في ساعة الحائط كلّ دقيقة مرة.

لم يتأخر يومًا عن موعده، ولِمَ التأخر عن أمر هو غاية عشقه؟! يخرج من بيته قبل الموعد بساعات، مبكِّرًا جِدًّا، هو يعلم

ذلك؛ لكن لا بأس أن يكون أول الواصلين كعادته، المكان خالٍ ككلِ يوم في هذا الوقت، يمضي وقته بالتأمل في المقاعد الفارغة التي يأمل أن تمتلئَ هذه الليلة على غير العادة.

يتوافد العاملون، ثم أعضاء الفرقة، يبدؤون بالاصطفاف على المسرح وترتيب آلاتهم، ووزنها، ووضع أوراق النوتة أمامهم، يبدأ الحاضرون في التوافد؛ واحدٌ، اثنان، خمسة، أهذا كلُّ شيء؟!

أزِفَ الوقت، وبدأت الفرقة تعزف أولى المقطوعات، قلبه معلَّق كما عيناه بالمدخل تترقب مزيدًا من الحضور، بدأ أولى أغنياته، وكأنه يغني في قبر، لم

يحرّك في الحضور النادر أيَّة بوادر طرب، أو استمتاع.

تتوالى أغنياته، ويتوالى التجاهل من الحاضرين، يقوم أحدهم متّجهًا لباب الخروج، فيقوم قلبه معه، خرج، وخرجت سعادته من جَنْبَيْه. يتحشرج صوته بباقي مقطوعاته، يقوم الثاني، فالثالث، لم يبقَ إلَّا اثنان، أحدهما نائم، ينهي أغنيته الأخيرة قبل أن تنتهي أنفاسه، ينحني منتظرًا تحية الختام التي لم يسمعها يومًا، يغلق الستار، ويغلق جَفْنَيْه على دمعاتٍ ملأتْ عينيه، يذهب لبيته منكسرًا ككلّ ليلة، هو يثق بنفسه وبصوته، ويعرف أنه لم يقصِّرْ يومًا في غنائه، فلِمَ لا يصل صوته لأسماعهم؟

أصَمَّ الناسُ، أم ذهبت ذوائقهم؟!

أنا ذاك المغني البائس حين أغني
أشواقي على قلب لم يتذوقها يومًا،
وأنتِ جمهوريَ الأصمّ!

خارج الحواس

أمهليني في حبُّكِ بضعَ سنين، فلم أعشقكِ بعدُ كما ينبغي، ولم أبكِ في حرم جمالكِ كما يجب، ولم أتلذَّذ بكِ كما أشتهي؛ بل لم أشقَ بحبكِ كما يليقُ بي.

هي سنواتٌ أفنيتها في غرامكِ، لا أدري كم هيَ، ومهما كان تعدادها، فهي قليلة، فمثلكِ يُعشقُ العمر كله، وأعمارٌ أخرى فوق العمر، ولا تكفي.

فاتنةٌ أنتِ كما كنتِ، ساحرة كنتِ، وما زلتِ أعشقكِ كما ينبغي لجمالكِ، وأحترمكِ كما يليقُ بسحركِ، ودومًا أنتِ ولا غيرك.

مقنعةٌ أنتِ جِدًا، ومتيّمٌ أنا جِدًّا. أحببتكِ بعقلي قبل قلبي، ثم بكلِّ جوارحي، وكامل الحواس. أسمعُ همسكِ عن بُعد؛ بل يخيّلُ إليَّ أنَّ كلّ صوتٍ جميلٍ أسمعهُ هو صوتكِ العذب، حتى كلامكِ الذي لم تقوليه بعدُ قد وصلَ إلى مسامعي.

حين تحادثيني أغمض عينيَّ، وأعطلُ كلَّ حواسّي؛ كي لا ينازعَني أمرٌ متعة التلذُّذ بصوتكِ الساحر، حتى حال عتابكِ لا يغادركِ هذا السحر؛ بل حين تغضبين،

وتصرخين أنتِ غاية الهدوء، ومنتهى السِّحر والعذوبة.

أستنشقكِ مع كلِّ عبير وردٍ يتغلغل في رئتيَّ، أنتِ العطر، ولا عطر غيركِ، بل أنتِ كلُّ أمرٍ جميل، أنفاسكِ هي العطر الذي أعجزهم تقليدهُ، كلُّ رائحة جميلة تذكرني بكِ، وتعيدني إلى لحظاتٍ قضيتها معانقًا إيَّاكِ، وسارحًا في ملكوت هواكِ، كنتُ حينها أستنشقكِ بكلِّ ما أوتيتُ من عزمٍ ليسكن عبيركِ في ثنايا روحٍ أنتِ غايتها في الحياة.

أتذوقكِ كلما ابتلعت ريقي، وكنتُ دومًا أتعجب: لمْ أتذوّق حلوًا، فلمَ هذا الريق الرائق؟

مجرد أن أذكر اسمكِ بلساني تسيلُ أنهارِ العسلِ في فمي، وحين قبَّلتكِ يومًا بَقِيَ الطعم في فمي حتى هذه اللحظة؛ بل سأموتُ، وأنا أتلذذُ به.

ذكراكِ هي السكر، فلا حاجة لي به بعد الآن، بِتُّ أشربُ كلَّ شيءٍ مُرًّا، فعسلُ ريقكِ ما زالَ في فمي!

أتلمسكِ كلما وضعتُ يدي على صدري، ضلوعي أصبحت تحرسكِ، كيف لا وأنتِ قد جعلتِ القلب مملكةً لكِ.

صرتُ أخشى على قلبي من خشيتي عليكِ، أخافُ أن ينفطرَ فؤادي، فتتأذِّي يا ساكنة هذا الفؤاد، كلما اشتقتُ إليكِ تلمَّستُ صدري لأشعرَ بدفئكِ الذي تبثِّينهُ في حنايا القلبِ، وزوايا الروحِ، لأطمئنَّ بعدها، وتستكينَ ثورةُ الشوق.

أراكِ في كلِّ جمالٍ أراه، حتى في إغماضي أراكِ، بل في نومي حتى، وحين أفقدُ الشعور.

صورتكِ قد انطبعت داخل جفوني، فأنتِ أمامي كلّ وقتي، نومي وصحوي، ليلي وظهري، شتائي وصيفي، أنتِ لي البصر والبصيرة، فحين لا أراكِ، فأنا لا أرى شيئًا في عالمي كلِّه، فأنا الضريرُ؛ بل أشد!

ما أنتِ إلَّا طيفٌ قد تغلغلَ في ثنايا روحي، فعاشَ بها وعاشت به، قرينةُ الروحِ أنتِ؛ بل أنتِ الروح ذاتها التي تحيا بها الروح، تلك التي لم تفارقني يومًا حتى

حين أبعدت ديارَكِ عن دياري، فبالقلبِ مستقرُّكِ، ومستودعكِ.

أشعرُ بكِ في زوايا فؤادي، فلا حاجة إلى الحواسِّ كي أشعرَ بكِ!

خطيئةُ الْغِيابِ

باكيةً تقول: تدّعي الحُبَّ وتخون! لقد أسرفتَ في الصفاقة.

بهدوءٍ يُجيب: خطؤنا كان مُشتركًا؛ فغيابُكِ زيّنَ لي غيركِ.

تمسحُ دموعها وهي تشيحُ ببصرها عنهُ: إن كنت أخطأتُ بغيابي، فأينَ فضيلةُ الصفحِ، ومَزِيّةُ الانتظار؟

وكوني أحجمتُ عن حُبِّكَ لوهلةٍ خيرٌ من أنْ أُغدِقَهُ عليكَ، وعلى غيركَ في آنٍ كما تفعلُ أنت.

يسحبُ نَفسًا عميقًا من سيجارتهِ هامسًا: لم أُشرِك في حُبّكِ أحدًا. كُلُّ ما في الأمر أنكِ كُنتِ في مجاهل الغياب، وكان اليأس يفترسُ أملي في رجوعكِ، ويقضي عليهِ يومًا بعد يوم. وحينَ أصبح سيِّدَ الموقف صار القلبُ فراغًا، ومطارًا لطيورِ الحُبِّ من أين حطَّت؟ بكلِّ الخيبة تَردّ: ما زلتَ كما أنتَ، تبخس الحُبَّ قدرهُ وتُرْديهِ في الحضيض. هو أسمى من أن يُصرفَ لكلِّ مَنْ هبَّ ودبَّ!

وبكلِّ البرودِ يردّ: الحُبُّ براءٌ من أخطائنا ونواقصنا، وسوءُ التطبيقِ لا يشوّهُ وجه الأنموذج.

لو ملأتِ قلبي حضورًا لما كان فيه متّسعٌ لغيركِ، ولو أرويتِني منكِ لما ظمئتُ لغير مائكِ، وخطيئةُ الغيابِ لا تقلُّ في شريعةِ العُشّاقِ عن خطيئةِ الخيانةِ، نحنُ مُثقلانِ بخطايانا، فلا تُلقي باللومِ عليَّ وحدي!

انتفاضةُ قلبٍ

اقتليني، أحرقيني، أمْعِني في طعني، أنا لكِ بكل حالاتكِ؛ جزر مشاعر أم مَدّ طغيان.

مع كلّ ظلمكِ أعجز عن الحنق عليكِ، القلب ينبض بمرافعة عنكِ، يقدِّمها وشهودُهُ الشوق والحنين، وأدلتهُ دموعٌ من العين تحرق الوجْنِات.

تمنّيت الكره كي أرتاح به، وددت لو أبدلت مشاعر الوُدِّ بغضاءَ لكِ أنتِ يا مَنْ لم تقدّر الأولى، واستحقَّت الأخرى.

ولكن، عبثًا أحاول، كيف يدلف الكُرْهُ إلى قلبٍ رُسمت صورتكِ بين حناياه؟ وكيف تنقص مشاعر عشق تراكمت فوق بعضها لتغدوَ حبًّا على حُبّ؟ أغالط نفسي حين أتمنَّى ألَّا أحبّكِ، فحياة القلب هي بحبّكِ، وبه كان ومعه سيكون.

يراودني ذات السؤال كلَّ ليلة، أخُلِقَ الحُبُّ والظُّلمُ في رَحِمٍ واحد؟ أمن العدل أن أتحمل وزر الحب وحدي، وأنتِ لاهيةٌ خالية القلب؟

ليتنا نتبادل الأدوار ولو لساعة، وأعدكِ أن أكون سيّدًا حانيًا، ولا أتسلح بجبروت القسوة كما أنتِ الآن.

جميلٌ هو الخيال، حين تتراءَيْن لي متبذِّلةً بعشق، حين أراكِ تنزفين المشاعر نزف مفطور الفؤاد، وحين تصل الأشواق

إليَّ منك ساخنة تلتهب، فتبرد سريعًا ببرودِ استقبالي لها.

كم هو جميل أن أشفي غليلي منكِ! ولو بخيالاتِ عجزٍ تذهب، فتخلفُ في القلب حسرة مع حسراتٍ أُوَل. وبعد، ها أنا ذا يا ملكتي، يا مَنْ توَّجكِ الحب سيدةَ مَنْ لا سيّدَ له، أنتِ يا من تجهلين أنكِ نلتِ مني ما لم ينله أحد قبلكِ. أعترف بضعفي، وأقر بقوتكِ، أتضرع طلبًا لرحمةٍ أراها بعيدة المنال، أتسوَّل مشاعر أحيا بها ما بَقِيَ لي من عمر، ولكني أراكِ كلما خضعت لك أكثر، ابتعدتِ عني أكثر وأكثر!

حسنًا، قد طفح كيلُ قلبي، بِتُّ متحسِّرًا على مشاعرَ ذهبت إلى مَنْ لا تستحق، سأحافظ على ما بَقِيَ لي من كرامة، وأنزع حبَّكِ من قلبي انتزاعًا، سينزف الكثير من الدموع، أعرف ذلك؛ ولكنه سيبرأ في عاجل الأمر أم في آجله، وحينها سأعود كريمًا أبِيًّا كما كنت دومًا، وسأمسكِ بما بَقِيَ لكِ عندي من ذكريات لأرميها في محرقة المروءة، وسأتدفأ عليها في صقيع المشاعر، في ليل الاشتياق المظلم، وأنا أغنّي بملءِ فمي:

ذهبَ العمرُ هباءً فاذهبي ... لم
يكنْ وعدكِ إلَّا شبحَا

صفحةً قد ذهبَ العمرُ بها ...
أثبتَ الحبُّ عليها ومحا

انظري ضحكي ورقصي فرحًا...
وأنــــا أحــمــلُ قلبــًا ذُبِــحــَا

ويــرانــي الــنَّــاسُ روحًــا طــائــرًا...
والجَوَى يطحَنُنِي طحْنَ الرَّحى[1]

رسائلُ فقدٍ

حينَ عزمتِ على الرّحيل، كان الخبرُ صاعقًا، لوهلةٍ ظننتكِ تمزحين، أو هو اختبار محبّةٍ، سخف في الحالتين: فلا المزح مقبولٌ هنا، ولا مشاعري بحاجةٍ لاختبار.

وحين ثبتَ لي الأمر، وصار الفراقُ أمرًا واقعًا لا مناصَ منه؛ بدأت الغربة تنهشُ فيَّ منذ اللحظة.

أنتِ من تتركين الدار. وأنا من أشعر بالغربة في بيتي، ألم أقل لكِ سابقًا أنكِ

وطني؟!

وحين بدأتِ ترتِّبين أشياءكِ، كنتُ أتطلع لأراكِ قد وضعتِ قلبي داخل شنطتكِ، تمامًا مع جواز السفر.

ألا تعلمين أنهم لن يسمحوا بسفركِ ما لم يكن قلبي معكِ ليحتويكِ كعادته دائمًا؟!

قلبي هو جواز عبوركِ، وهو مَنْ سيعيدكِ إليّ يومًا.

وحين قَرُبَ الرحيل، كانت الأيام تمضي ساعاتٍ أو أقلّ، كانَ الوقت يجري عاصفًا، أما من حيلةٍ لأوقفَ عقارب الساعة، أو أعيدها إلى الوراء؟

وحين غادرتِ؛ وقفتُ طويلًا أنظر إليك مبتعدةً، ملوّحًا لكِ بيدي ودموعي. وقتها كان قلبي يدقُّ بعنفٍ ليخرجَ من

قضبان ضلوعي ليلحق بكِ. هو يشعر بالانتماء إليك أكثر، فأنتِ مَنْ سكن فيه، وهو مَنْ عاش بكِ.

وحين غبتِ عن الأنظار، استحالت دقَّاته نداءً لكِ للعودة. كانت كموَّالٍ حزين يستدعي العبرات، ويستجلب الدمعات.

كان كالرَّضيع الباكي طلبًا لأمِّه؛ يشتكي الجوع والعطش، وقبلهما الفقد. هل من ضمَّةِ حنانٍ تعيد الطمأنينة لذلك الطفل قبل الغياب؟

آهٍ، ما أقسى هذا الموقف! فالوداع نهاية الأشياء الجميلة. كل أمر ينتهي بوداع لا أحبُّ أن أبدأه، فكُرْهي للوداع أبَدِيٌّ.

وبعد وداعكِ؛ مرَّ شريط حياتنا سريعًا أمام عينَيّ، كانت قصيرة على الرغم من

طولها.

كتب الله أن ساعات السعادة تمضي سريعًا، وكتبَ أن حياتي معكِ كانت ثوانيَ أو أقلّ، وكُتب على قلبي أن يظل ملهوفًا للأبد؛ فلا في قربكِ ارتواء، ولا في بعدكِ نسيان!

وبعد رحيلكِ؛ لم تعد أيامي أيامًا. تفاصيل كآبةٍ أعيشها قسرًا، بلا أدنى وازعٍ من متعة. كيف لفقدكِ وحده أنْ يحيلَني لشبهِ إنسان؟!

إقرارٌ!

إلى صاحبة العشق الذي أدمنت، والشوق الذي ألفت، أقرُّ، وأعترف وأنا بكامل مشاعري العاطفية، وبأقصى درجات الهيام بكِ:

ما الحياة بدونكِ إلَّا لوحةً باهتة الألوان ضبابية الملامح، وما حبُّ غيركِ إلَّا عبث مشاعر، وقلبٌ يعزف سيمفونيات العشق لجمهور من الصُّمِّ.

وما الفتياتُ في عينَيَّ إلَّا خيالات مآتة؛ تفزع قلبي أن يحطَّ في بستان العواطف ليلتقط الحُبَّ حَبًّا، وما عبارات الغزل على مسامع غيركِ إلَّا قصائد هجاء مُقْذِع، تجعل الآذان تُصَمَّ خشية الغثيان.

وما ليالي السمر تحت قمر منتصف الشهر المستدير بغيابكِ إلَّا فروض حياةٍ سمجةٍ أؤديها بدافعٍ من أيِّ أمر، عدا الحب.

وما أنا بعدكِ إلَّا عاشقٌ يحتضر، ومحبٌّ ينازع، وهائمٌ مغلوبٌ على أمره، سقط بين مطرقة هواكِ، وسندان الكرامة، فأختار الأخرى، وكان حَرِيًّا به التمسكِ بالأولى؛ فضاع، وضاع كلّ شيء.

والآن أقول:

تبًّا لكرامةٍ تورِث القلب حسرة، والحَلْق غُصة، والعين دمعة، والصدر زفرةً حرَّى بعد زفرة!

وما الحبُّ إلَّا تضحية!

كان اللقاء الذي حَلُما بهِ كثيرًا، وانتظراهُ أكثر، كان حالمًا، جميلًا، بجمال تخيلهما له. جلسا متقابلين بينهما طاولةٌ صغيرة، ومشاعرُ كبيرة، سرعان ما شعرا أن هذه الطاولة ما هي إلَّا حاجزٌ بينهما، وهو مقام اللَّا حواجز، قام من مكانهِ، وجلس بجوارها، وأجلس أشواقهُ بينهما.

كانت خَجِلةً، ثم ازدادت خجلًا، رمقها بنظرةٍ جعلت جبينها يتفصَّدُ بالعرق البارد، هي فرحةٌ بهِ، خَجِلةٌ منهُ، تودُّ لو تخلع رداء الحياء لتستمتع بلحظاتٍ انتظرتها طويلًا.

كان الصمتُ قد ألقى بردائِهِ على المكان، حتى خُيِّل لكلٍ منهما أنه يسمع دقات قلب الآخر. قطع ذلك الصمت قيامها متَّجهةً لطاولة الشاي، كانت تريدُ أن تخرج من هذا الخجل الذي كبَّلها بأيِّ تصرُّفٍ عفويٍّ.

رفعت الكوب لتقدِّمَ له الشاي الساخن، فاضطربت عندما اقتربت منه والتقت عيناها بعينيه. ارتجفت يدها من ارتباكها، فانسكبت بعضُ القطرات على يدها

الناعمة، فصرخت متألمةً، هبَّ من مكانه قافزًا، فالتقطَ الكوب من يدها، ووضعهُ على الطاولة، ثم أمسكَ بيدها بين يديه ليجففها، ويتحملَ الحرارة عنها، ثم قبّلَ اليد المحمرّة، ودفنها على صدره وبين حناياه.

رفع بصره، فراعتهُ تلك الدمعة المترقرقة بين أهدابها، تمنَّى أن يفعل أيَّ أمر؛ كي لا تسقط هذه الدمعة، فيسقطُ تماسكهُ معها.

سارع، فوضع راحتيه على خديها، وبإبهاميه مسح بوادر الدمع من وجنتيها، ثم أتبعَ ذلكَ بقبلة حانية على جبينها الذي بدأ للتّو ينزف عرقًا ساخنًا، أجلسها، ثم جلس بجوارها، وطوّقها بذراعه، وجذبها إليه قليلًا، فتمنّعت بغنجٍ، فسحبها إليه بشدّةٍ

أكثر، شدّة المُحِبّ التي لم تضرَّ يومًا،
عندها تهاوى دلالها الجميل، فاستسلمت لترتميَ على صدره، وبأحضانه. التصقت به بشدّةٍ، وكأنها تريدُ أن تغوص في أعماقه. مغمضةُ العينين ساهمةٌ تسبح في ملكوتٍ لا يُعرفُ مداه، ولم يُسبر غوره.

هي بين النوم واليقظة، تتأرجحُ بين الواقعِ والخيال.

فاقدةٌ لمعالم الزمان والمكان، فكلّ مساحات الدنيا اختصرها ذلك الحضن الدافئ، والزمن توقّف حين ارتمت على صدره، أما هو فقد طوّقها بذراعيهِ، ودفن وجهه في شعرها مستنشقًا عبيرها الذي حوت فيه كلّ أزهار البساتين، ورائحة المطر وعبق القهوة. كلّ رائحة راقت له

يومًا وجدها في شعرها الكستنائي. كان يحسُّ بحرارة مشاعرها، وكأنها تُلامس جلده، ويستفزّهُ تسارعُ أنفاسِها الذي يحسُّ بهِ وكأن أنفاسها تجوب رئتيه.

كانت متوترةً فتلكَ هي المرة الأولى، كم حلمتْ بهذا الموقف! وكم تمنَّته أياماً وأيامًا!

أدركَ اضطرابها، فأخذ يحرّكُ يدهُ اليمنى على ظهرها صعودًا ونزولًا، كانت يده تجوب ظهرها برفق، فتنتشر في أعطافها السكون والطمأنينة، بدأ اضطرابها يزول، وللتّو أحسّت بمتعة الموقف أكثر. لم تكن تتمنّى شيئًا في تلك اللحظة أكثر من أن تفنِيَ حياتها هكذا.

فتحت عينيها للمرة الأولى، فاستر عى انتباهها بقعة حمراء تتوسط ثوبه الناصع البياض. كانت البقعة تمامًا على فخذه، فرفعت رأسها لتنظر في عينيه متعجبةً، وهو يبادلها الاستغراب، فلا يعلمُ ما الذي أخرجها من حضنه، وأنهى لحظتهما الجميلة.

مدَّتْ يدها، ولمست البقعة، فوجدتها لا تزال ساخنة، ونظرت للكوب فوجدتهُ خاليًا إلَّا قليلًا.

للتَّوِّ أدركت أنها أفرغت معظم ما في الكوب على فخذه الذي لا يزال يحترق، والآن فهمتْ أنه هبَّ ليواسيها في ألمِ

نقطتين لسعت يدها متناسيًا كلّ الذي كان يأكلُ جلدهُ من ذلك السائل الساخن.

نظرت إليه باستنكار، فابتسم ابتسامته التي تريحها دومًا، ولسان حاله يقول:

وما الحبُّ إلَّا تضحية، وتقديم النفس للحبيب.

عندما تنطقين

لكِ يا فاتنتي لغةٌ خاصَّةٌ بكِ، لغة ليست كباقي اللغات، ليست بالأحرفِ والكلمات، ولا بالنطقِ، ولا الهمسات. لغةٌ لا يفهمها سواي.لكلماتكِ وقعٌ خاصٌّ، وللحروفِ عندما تنطقينها سحرٌ خلابٌ لا يماثله سحر، تمامًا كسحرِ أنغامٍ عذبةٍ تعزفها أصابعُ فنانٍ على بيانو عتيق.

كمستمعي تلك الأنغام أنا؛ أغمضُ عينيّ، وأستمتعُ بأذنيّ، وأغيّبُ حواسِّي

الأخرى؛ كي أكون مُصغِيًا بكلِّ ذاتي لكِ.
حتى قلبي آمره أن يكفَّ عن الخفقان، فلا أريدُ أن ينازعَ سمعي فيكِ أحد، كي أعطي همساتكِ ما تستحقُّ من وَلَهٍ. وأنتِ، تواصلين عزف ألحانكِ الشَّجِيَّة بشفتيكِ، فيرقصُ لها ومعها قلبي طربًا، وحبًّا، ونشوة!

تانك الشفتانِ فنّانتان، مبدعتانِ، ملهمتان، حتى وإن كان كلّ ما قامتا به هو الكلام، ولا غيره. تحادثيني، فأصمت ولا أقاطعكِ بحرف؛ كي لا أفوّتَ ثوانيَ لا أسمع فيها صوتكِ. تطلبين مني الحديث، فأعتذرُ بأنْ لا كلام عندي، فقط لأسمعكِ أكثر.

شلّالُ صوتكِ حينَ ينساب في أذنَيّ تمامًا كالماء البارد القُرَاح حين يشربهُ من أوشكَ على الهلاكِ عطشًا. قد ظمئت لهمسكِ طويلًا فارويني.

الحروفُ عند نطقكِ بها فتنةٌ، وكأني معها على استماعٍ للمرة الأولى. أحروفكِ غير الحروف؟ أم أن غيركِ لا يجيدون نطقها كما أنت؟!

وكأني بكِ وأنتِ تتحدثين تتطاير من شفتيكِ وريقاتُ ياسمينٍ وذرّاتُ سكر. بأذنَيّ أتذوقُ حديثكِ وأشمُّ عبيره!

آهٍ لو تعلمين كم ينتعشُ فؤادي بهمساتك! وتسمو روحي بمناجاتك،

وتضحكُ لي الدنيا بضحكاتك، متى تدركين أنَّ سعادتي كلها معلقةٌ بكِ؟!

أنا من عشقكِ بأذنيهِ قبل أن تعشقكِ بقية حواسَهِ، ما عشق صوتكِ إلّا مقدمةً لعشقكِ كافة، من رأسكِ لأخمص قدميكِ.

كنتُ أسخرُ مِمَّنْ يردّدُ " الأذنُ تعشقُ قبل العين أحيانًا"، وبعدما أحببتكِ سخرتُ من نفسي التي تجهل مواطن العشق كثيرًا.

كلّ هذا وأنا أسمعكِ ولا أراكِ، فكيف لو مثلتِ أمامي لتملَئي منّي السمع والبصر، والفؤاد؟!

أحلم أنْ أراكِ تنطقين أمامي. أن أرى همساتك بعينَيَّ قبل أن تزهر في مسامعي،

اشتقت لذلك كثيرًا، فلي في شفتيكِ مآربُ
أخرى!

رُوحٌ غائبةٌ

اعتاد أن يحلق ذقنه كلّ جمعةٍ قبل أن يذهبَ للقائها، كان حريصًا أنْ تراهُ بأبهى حُلَّةٍ، وبأجملِ صورة. وفي تلك الجمعة؛ عرف أنه لن يلتقيها ليلًا كما هي العادة، فقد طواها البعد، وأمستْ في رحم الغياب.

خرج من بيته ظهرًا، فلم يرَ أشعة الشمس الحارقة، ولم يشعر بها، رفع بصرهُ فرآها مجرد قرصٍ برتقاليٍ لا ينشرُ ضوءًا ولا حرارة!

سار في طريقِهِ، فلم تزاحمه السيارات كالمعتاد، ولم يضقْ بها ذرعًا ككلّ مرة، فالطريق خالٍ إلّا منه!

جلسَ على كرسي الحلّاق لينزعَ له الشعيرات كالعادة، فيفاجأ بأن وجههُ حليقٌ كأن شفرة الحلاقة قد جابتهُ عرضًا، وطولًا!

كلّ شيءٍ حوله ليس كما هو، وكلّ أمرٍ ليس كما كان، الآن أدركَ أن بوجودها كانت حياته تسير كما ينبغي، ووفق المطلوب، وحين فارقتهُ أخذت معها بهجةَ كلّ أشيائه، وروح كلّ ما حوله.

كانت هي الحياة داخل الحياة، وحين نُزعت من حياته صارت بلا حياة.

تمامًا كالشجرِ بلا خُضرة، وكالورد بلا عبير.

بعد ذلك اليوم لم يحلق ذقنهُ أبدًا!

عشقٌ حتّى النَّفَس الأخير

سبحتُ طويلًا في بحر حبّكِ السرمديّ، آملًا بالوصول إليكِ، وطال بي السفر، وطالت عليَّ المسافات، وخلتُ أن بحر حبّكِ لا نجاة منه، ولا نهاية له.

كنت أمَنّي النفس بالوصول لشاطئ الأمان، حيث عينيكِ، وحيث أنتِ. كنتِ لي كالجزيرة الوارفة الظلال لمن أوشكوا على الغرق، حيث هناك الطعام والشراب والدفء، وقبلهم الأمان، وأنتِ لي كذلك،

فيكِ كلّ ما أريد، وغاية ما أحتاج؛ لكن أين أنتِ؟ لا أراكِ حتى الساعة في الأفق؟!

ومال هذا البحر لا ينتهي، فقد أمضيت السنوات، وأنا أسبح في بحرِ حبّكِ، ولم أصل إليكِ بعد ! أنهك قلبي التعب، وفاضت به المشاعر، ولم يعدْ يطيق مزيد انتظار.

كأني به يقول: أما وصلكِ، أو الموت في لُجّة غرامكِ، فلم أعدْ أقوى على المزيد، وبعد الوصول، وبعد الفرح الطاغي، وسيل الدموع الباردة؛ دموع الفرح، أفاجأ بكون غيري سبقني لكِ، وأخذ المكان الذي حلمتُ فيه طويلًا.

تراءت لي سنوات عمري التي أمضيتها في البحر كشريطٍ يمرُّ أمام عينَيّ، بلحظات السعادة المشوبة بالأمل، ودهور حزن اليأس،هكذا بكلّ بساطة!

يضيع عمري بأمل الوصول، ثم أصلُ ولا أجد عمري الذي ضاع؛ لأني لم أجدكِ !حسناً، ما فائدة العيش إذن؟

كنت أعيشُ على أملي، والآن الأمل بات ألماً.

فليكن هو الموت، وكان حرياً به أن يأتي قبل هذه اللحظة بسنين، ليمنع بعض فصول عذاب الانتظار على لا شيء!

وآسفًا على مشاعر هُدِرَتْ في غير اتجاهٍ صحيح، ولمن لا يستحقها !

أفّ.. وما بعدها!

- هل أنتِ مستعدة؟

- منذُ أمدٍ وأنا على استعدادٍ، منذُ دفعتني الحاجةُ إلى السُكنى في بيتك، لم أكمل أسبوعي الأول حين بدأتَ تهددني بهذا المصير.

- أنذهبُ الآنَ؟

- الآنَ، أو بعد قليلٍ لا فرق، هو المصيرُ المحتومُ الذي سيقعُ إنِ الآنَ، أو فيما بعد. لن أهتمَّ بتأخيرهِ، فلستُ أرى مقامي عندكَ يستحقُّ العناء.

- دعيني أساعدكِ على ركوبِ السيارة.

- لا حاجةَ لهذا، سأعتمدُ على نفسي كما كنتُ دومًا، أعرفُ أن مساعدتك ليست رفقًا بي؛ بل استعجالًا لرحيلي.

- سيعجبكِ المكانُ حتمًا.

- وإن لم يعجبني، فما الفارق؟ وكيفَ يعجبني وأنا لم أخترهُ؛ بل فُرِضَ عليَّ قسراً!

وهل يُهمُّكَ هذا الأمرُ أصلًا؟!

- ستجدينَ هناك مَنْ هم في سنّكِ.

- لا أشكُّ في ذلك، فمثلكَ كثرٌ وهم سببُ وجودهم هناك.

- سأزوركِ كلَّ يومٍ.

- أنتَ تمزحُ بالتأكيد! لم تكن تراني إلَّا شَزَرًا، وأنا في بيتكَ، ولا يفصلني عنكَ إلَّا جدارٌ صلبٌ، وقلبكَ الأكثر صلابة، فكيف ستأتيني حين باعدتْ بيننا المسافات؟!

- ستكونُ زوجتي وأولادي برفقتي.

- هي ستأتي لتطمئنَّ على وجودي في المكان الذي أرادتني فيه، ثم ستنساني تمامًا كما نسيتَ أنتَ كلَّ ما فعلتهُ لكَ منذُ أنجبتكَ.

- سيفتقدكِ الأولادُ كثيرًا.

- ليس بقدر افتقادي لابني الذي ضاعَ في خِضَمِّ شخصٍ لا أعرفهُ، ولا أودُّ معرفته.

حقًّا من أنت؟!

- سأحضرُ لكِ كلَّ ما تحتاجينهُ.

- بعد حنانكَ الذي لم أجدْهُ، لا أظنُّ أنّي سأحتاجُ شيئًا.

- ستمضينَ أيامًا سعيدة.

- ومن أينَ ستأتي السعادةُ في مكانٍ كلُّ شِبْرٍ فيه يذكرني بعقوقك؟ وكلُّ لحظةٍ أُمضيها فيه تأكلُ من قلبي، وتميتني قبل أواني!

- لا تغضبي مني أرجوكِ.

- لم يعد في القلبِ متَّسعٌ لمزيدِ غضبٍ، ولا حتى لحقدٍ أو كراهية. قتلَ منِّي الحزنُ كلَّ ذرّةِ إحساسٍ، وغدا القلبُ خاليًا من كلِّ شعور.

لا تعجبْ، فجحودكَ، ونكرانكَ فعلا بفؤادي ما لنْ تتخيَّلَهُ حتى تذوقَهُ من

أولادكَ يومًا.

- هيّا فلننزلْ.

- قُضِيَ الأمرُ إذًا؟

حانت اللحظةُ التي أمضيتُ العمرَ كلَّهُ أخشاها!

ليتني متُّ قبلًا، ليتني دُفِنْتُ في قبري قبل أن أرى وحيدي يدفنني في مكانٍ كهذا!

لن أُعنّفكَ، ولن أغضبَ عليك، فلم أفعل ذلك حينَ كنتُ قويةً وأنتَ الضعيفُ بين يَدَيّ، فكيفَ الآنَ، وقد تبادلنا الأدوار!

ولن أدعوَ عليكَ أن يُذيقكَ أبناؤكَ ما ذُقتهُ منك، ليسَ وأنا على قيدِ الحياةِ على الأقل، فهذا ما سيعذبني أكثر.

ليت لي صوتًا، فأصرخُ في وجه عقوقكَ وأعنّفهُ، ولأردّ على تبريراتك الواهية، حينَ أكثرت منها لعلمكَ أنني لا أستطيع الرَّدّ عليها.

قد فقدتُ صوتي منذ أمَدٍ بعيد، وأصبح الصمتُ تعبيري الوحيد، سيَّان إن كان الرفض، أو الموافقة.

سأنزلُ يا بُنَيَّ، وسأريحك مني، وسأظلُّ أدعو لكَ كما كنتُ دومًا؛ لكنني سأزيدُ في دعائي أن يرحمكَ اللهُ من تأنيبِ الضمير. حينَ تُبلّغُ ذاتَ يومٍ بوفاتي!

إلى رحمة اللّٰه!

دفنتُ قلبي هاهنا، وأعلنتُ نهاية درب، كنتُ فيه الخاسر منذ البدء. ووضعتُ شاخصًا كي لا يطأهُ العابرون، فللموتى كلُّ الإجلال، أمّا أنتِ، فمنذ الساعة لم تعودي لي كما كنتِ، فقد ذهب الذي كان يحتويكِ، والذي كان ينوءُ بحبّكِ.

أنتِ الآن عندي كأيِّ أحدٍ؛ بل أنتِ الأبعد، مهلًا، لا تذرفي دموعكِ أمامي، فلن تحرّك فِيَّ ساكنًا. بل اذهبي وأبكي

عند قبره، فهو من جعل لكِ قيمةً عندي؛ بل جعلكِ أنتِ القيمة الفضلى، ولا شيءَ سواكِ.

وترحَّمي على مَنْ وضع لكِ قدرًا، ولم تحمدي له فضلًا. وادعي الله خاشعةً أن يُحبيه لتحيَيْ معه، وليعودَ لتعودي، ولن يعود يومًا!

حلمُ حياةٍ

تجلسين أمامي غارقةً في بحرِ خجلكِ الجميل، حمرةُ الخجلِ تصارعُ حمرةَ وجنتيكِ، فتزيدهما جمالًا إلى جمال. ويطولُ الخجلُ عينيكِ، فيكسرُ نظراتكِ إلى الأرضِ، بربّكِ حطِّمي حاجز الخجلِ هذا، فكلّي شوقٌ أن أبْحِرَ في عينيكِ!

تمضي الدقائقُ ولا يزال الصمتُ لكِ عنوانًا،هو الخجلُ يطِلُّ برأسهِ مرّةً أخرى!

أُحادثكِ، فتجيبين بهمسٍ يكادُ لا يسمع، لمَ الهمسُ في موضعِ الجهر؟!

عذرًا، فلن تكفيني همساتكِ، فكلُّ ما أريدُ أن أنهلَ من عذوبةِ حرفكِ، وشهدِ حديثكِ؛ بل أنْ أتذوّقَ صوتكِ بأذنَيَّ!

ما بالُ يدكِ ترتجفُ هكذا؟ هي الرهبةُ إذًا، وارتباكُ الموعد الأول.

دعي يدكِ المرتجفةُ تطمئنُّ على صدري، فدقَّاتُ قلبي كفيلة بمنحها الأمان والاطمئنان، ارفعي رأسكِ قليلًا، ودعي أعيننا تتحدثُ، فهي أصدقُ من حديث اللسان، واقرئي عينَيَّ جيّدًا، فهما نافذتانِ لقلبي، وفيهما كُتِبَتْ سطورُ حبّكِ، وملاحم هواك.

أتشعرينَ بالتعب؟ ضعي رأسكِ على كتفي، واحلمي ودعيني أحلم؛ بل نامي في

أحضاني، فلن تجدي لكِ فراشًا أحنُّ، وأرقُّ من ضلوعي.

اعذري تسارع أنفاسي، فهي تتسابقُ لتلفحَ خَدّكِ عند اقترابي منه،

واعذري دقّاتِ قلبي المتعاقبة، فهي تصرخُ بالولاء لكِ، واعذري لهفتي، فهذه اللحظة " حلمُ حياة!"

بودِّي أن أهمسَ في أذنكِ بعض عباراتِ الغرامِ التي نقشتها لكِ بقلبي منذ سنين، لكنّ أنفاسي تدغدغكِ فتبتعدين ضاحكةً، أقتربُ منكِ أكثرَ، وألتصقُ بكِ فتتحركين بابتعاد، قاتلَ اللهُ الخجل!

بربِّكِ دعيني أؤدي فروض غرامكِ كما يجب، وعلى طريقتي الخاصة.

ما أجملَ عطركِ!

أهو الذي يُعطِّركِ، أم أنتِ التي تمنحينهُ عبيره؟

أتوقُ لأنْ يتغلغلَ هذا العبيرُ في ثنايا روحي، أغمضُ عينيَّ لأشمَّ هذا العبير، فتتعجّبينَ من إغماضي، لا بأس، كنتُ أريحُ عينيَّ قليلًا من جمالِ وجهكِ الفاتن!

سأصمتُ قليلًا، فالصمتُ في حَرَمِ الجمالِ واجبٌ، هو صمتٌ لا بُدَّ منه، فقد أعياني التعبير، وعجزتُ عن البوْحِ بما أكِنّهُ لكِ.

أرجوكِ ألا تفعلي!

وكفي عن الخوضِ في الماضي، انسَيْ كلّ عثراتنا الفائتة، فممحاةُ لقائنا محتْ كلّ سطور حماقاتنا السابقة. وإياكِ والعتابْ! فغباءٌ أنْ نشركَ مع لحظات الفرح بعضًا من كآبة.

لكن لا بأس ببعض الغضب، اغضبي مني، وخاصميني، فأجملُ هواياتي هي إرضاؤكِ، وطلبُ الغفرانِ منكِ.

ثم أطمئنيني إليكِ أكثر، اجعليني أشرفُ على الهلاك، ثم اسقيني منكِ حتى أرتويَ، فكلما زاد الظمأ، زادت لذّة الارتواء!

فقط لا تسمحي للخجلِ بأنْ يدرأ سيلَ رغباتٍ مكبوتة، فقد كادتْ روحي تزهقُ ظمأً إليكِ، فلتسمحي لشفَتيَ العطشى بأنْ

ترتويَ من سلسبيلكِ العذب، فقد لا يتكرّر هذا اللقاء مرة أخرى، وآخر ما أريدهُ أن أفارقكِ وفي نفسي منكِ شيء، فدعينا نفعلْ كلَّ ما نَوَدّ فعله الآن، وتبًّا للقيود!

ما بالكِ تكرّرين النظرَ إلى الساعة؟ لن أسمحَ للوقتِ أن يضعَ النهاية المأساوية، فقط انسَي الزمان والمكان، ولتقفْ عقاربُ الساعة إلى الأبد! وانسَيْ كذلك كائنًا من كان، ففي هذا الموقف: أنتِ، وأنتِ، وأنتِ، وسحقًا للبقية، وأنا، وأنا فقط، ومن بعدي الطوفان!

ذاتَ لقاءٍ

لحظةُ قُربٍ انتظرناها طويلًا، لفَّها عجزُ لسانٍ وانكسارُ عيونٍ، هل من حرفٍ يَفُضُّ بكارةَ الصمت؟

تبًّا لكلِّ عباراتِ الدُّنيا إن لم تساعدني أنْ أصِفَ لكِ ما أنتِ لي، وتبًّا لي حينَ أعجزُ، وأنا الذي لم أكُ يومًا عاجزًا.

ما لهذا الوقت يجري حثيثًا! ويكادُ الزمنُ ينقضي، أما مِنْ حيلةٍ لأظلَّ ما بَقِيَ من عمري أنظرُ في عينيها؟

أتعبني النظرُ إلى الساعةِ، وأتعبتني عقاربها، وهي تمشي بسياطها على جلدي، باللهِ توقفي، أو فارجعي، فأنا لم أبدأْ بعد.

أسكوتُها خجلٌ، أم الحبُ ألجمها؟ أم نظراتُ عينيها تقولُ ما لا يقولهُ غيرها؟ أين صوتها الذي كنتُ أنامُ، وأستيقظُ عليه؟ماءُ وردٍ كانَ يُصَبُ في أذني كلَّ وقتٍ، فأنتشي بهِ.

كم تمنَّيتُ لو كانَ هذا الصوت محسوسًا! فأمسكُ به، وأزرعهُ في حنايا قلبي، وأسقيه بدمي، ضحكتها، وآهٍ منها! كم جعلت قلبي يقفزُ طربًا! حتى أخالهُ يخرجُ من بين أضلعي. كانت تضحكُ، وكنتُ أفرحُ. فسعادتها هي منتهى أملي.

وكانَ عبيرُ ضحكاتها يخرجُ عليَّ، فيقلبُ تاريخي، ويسجّلُ أعظمَ انتصاراتي، أين هذا العبيرُ؟ ونحنُ الآنَ متقابلين روحًا، وجسدًا؟

ابتسامةٌ مقرونةٌ بخجل. أهذا كلُّ ما أستحقُّ؟ أهو بُخْلٌ على حبيبٍ لم يبخلْ يومًا؟ أم هو عفافٌ مَنْ لم تعتدْ هذا الموقف قبلًا؟ أم هو خجلٌ أتى في غيرِ وقتهِ؟ ... قاتلَ اللهُ الخجل!

هل لي بلمسِ يدك؟ بل بضمِّها بينَ حنايا يديّ، كما ضمَّ قلبي بين حناياه شوقهُ إليكِ، وعشقهُ الذي فاضَ منه وبه. لعلَّ سفينة مشاعري تصلُ لميناءِ قلبكِ، ولو من أطولِ الطرق.

وبعد، أهو الوداع؟

لكأننا لم نلبث إلَّا قليلًا؛ بل كأنَّ لقاءنا

كان لمحًا من بصر، هي لحظاتُ السعادةِ

لا تلبثُ إلَّا قليلًا، والمصيبة أننا لا ندركُ

ذلكَ إلَّا بعدَ فواتِ الأوان!

هَدِيَّتي أنْتِ

قالتْ: ما تريد هديّة ميلادك؟

قلتُ: أنتِ، وهل من هديّةٍ أغلى!

- غريبٌ أمرك، أيرفضُ عاقلٌ هديةً بيوم ميلاده؟

- نعم، حين يطمعُ المُهدَى بالمُهدِي أكثر من الهدية!

- لقد مضى من عمرك الكثير.

- ما مضى منهُ قبلكِ ليس في الحسبان، لي في هذه الدنيا بضعُ سنينَ لا أكثرَ، هي عمري معكِ.

-سيكون حفلًا صاخبًا، والكثير من المدعُوّين.

- بالتأكيد، فهناك أنا وأنتِ، وقلبي وقلبكِ، ومشاعر الحبّ التي تَحُفُّنا.

- كم من الشمعات ستضعُ في حفل ميلادك؟

- هي واحدةٌ لا أكثر، وستكونُ منحوتةً على صورتكِ، فأنتِ الشمعةُ التي تنيرُ لي حياتي.

- أين ستقيم حفل ميلادك؟

- في ساحتي الأرحب، ميداني الذي طالما احتواني، واحتوى جنوني، ونزواتي وطيشي، قلبكِ أقصد.

- مالي أرى في عينيك بقايا من حزنٍ قديم. أهذا وقته؟!

- معذرةً، فقد اعتدتُ أن أحتفل بميلادي وحيداً، فلم يطقْ قلبي فرحةَ وجودكِ معي!

أملٌ وألَمٌ!

صبيةٌ خائفون، وأمٌّ ثكلى، الأب تحت مبضع الجرّاح، والأمل أقلّ من أن يذكر، لو لم يكن قليلًا؛ ما سُمِّيَ أملًا!

لأيام خلت هم هكذا، ولأيام قادمة أيضًا، وبعد هذا الترقّب كلّه، ينقلب أملهم حزنًا، بفقد أبيهم، وتغدو أيامهم بكلّ لحظاتها التي عاشوها انتظارًا لشفائه؛ مجرد تفاصيل ألمٍ تنغرس في صدورهم كخناجر يمتدُّ وجعها لسنين. وتظلُّ الذكرى الأشدّ وقعًا، والحزن الأشدّ وطأة؛

هي دمعاتهم التي سكبوها على أرضية ممرَّات المشفى، الآن فقط أدرك الجميع أن الأمل يحيي حينًا، ويقتل أحيانًا، وأن اليأس قد يكون رحمة؛ بل هو رصاصة الرحمة!

ثم تمضي الليالي واحدة إثْرَ الأخرى، وتقلّ الدموع مرةً بعد مرة، حتى تجفّ تمامًا، ويبقى في القلوب بعضُ غصّاتِ ألمٍ، لا أكثر. ثم لا تلبث أن تتحوّل إلى مجرد ذكرى سيئة، ثم تُنسى هذه الذكرى وكأنها لم تكن. ويغدو واحدهم يتذكر فقيده، وكأنه يتذكر شخصًا لا يمتُّ له بصلة، مجرد اسم وذكرى، صارت لا تمثل أمرًا كبيرًا، هي نعمة النسيان، أم نقمته، حقًّا لا أعلم!

ليتكِ تعلمين أنَّ ذلك النسيان الذي أسقط حزن الفقد من القلوب؛ كفيلٌ بأن يزعزع عرشكِ المكين في قلبي. سينتزعُ بذرة الأمل التي زرعتِها ظلمًا بقلبي، تلك التي كَبُرَتْ وحجبته عن نور اليقين.

كان الأمل ينعش روحي - كما كنت أظنه- واكتشفت متأخرًا أنه سُمٌّ زعافٌ كنت أتجرع منه القليل كلَّ يوم، وأدع باقيه لغدي، حتى قتلت نفسي بيدي!

اليأس كان يلقي عليَّ بظلاله، كلَّ ذات ضعفٍ، فأطرده مستعينًا بأملي، والآن فقط بدأت أرى أيامي السابقة كما يجب أن أراها؛ موت بطيء، هذا كلُّ شيء!

كنت كالشّاةِ المعلّقة التي تنزف دمها قطرة، قطرة. كنت أنزف مشاعري قطرة، قطرة. حتى حانت ساعة الحقيقة، وتبخّرت كلّ تلك الأماني!

تظل الذكريات، ويبقى الألم، وتطغى مرارة النهاية، على شهد الابتداء، وتُمحى كلّ تفاصيل جميلة، فقط تبقى تفاصيل العناء، تفاصيل الألم، الذي باركهُ الأمل.

أملٌ يسوّغ لنا الاستمرار بقتل أنفسنا بأيدينا، وينقلب ألمًا، ألا تبًّا له من غباء!

والآن، لم يعدْ هناك إلّا النسيان، فهل من سبيلٍ إليه؟

حينَ ترْحلُ الرُّوح

لا جديدَ حتّى الساعة، مذُ غادرتِ غادرتْ معك البهجة، ورحل كلُّ جميل. بقيتِ الكآبة وأنا، وبيننا عقارب الساعة تمشي الهُوَيْنى، فالساعة كأنها دهر!

لا أعلم لِمَ أنا حزينٌ بهذا القدر؟ فما حدث كان منتظرًا منذ البدء.

الحبُّ وحده لا يكفي!

أليسَ هذا ما كنتِ تقولينه دومًا؟

الحبُّ يكفي حين يكونُ مقرونًا بالبُعد، وحين يكون الوصلُ شحيحًا، أما مع

المعايشة؛ فلا بُدَّ للحبِّ أن يرافقه التفاهم، كي تسير عجلة الحياة.

نحن متحابَّان، نعم؛ بل عاشقان. ولكنَّ التفاهم يأبى بيننا حضورًا، خصامنا أكثر من توادِّنا، وساعات الهجر تغلب دقائق الوصال. بحر العواطف حائرٌ بين مدِّه والجزر، والقلبُ بات حيرانَ مشتتًا.

جرس الهاتف يرنّ، قطعًا ليست هي.

- من؟

- أأنتَ وحيد؟

- حتمًا أنت، ومن سيسألُ عنِّي غيرك!

نعم أنا وحيد، كما كنتُ دومًا، الفارق أنها الآن ليست عندي جسمًا وروحًا. فقد كان الجسد أمامي، والروح لا أعلم أين!

- دعها ستعود حتمًا.

- ومن قال إني أنتظر عودتها؟ هي صفحة طُويتْ؛ بل مُزعتْ!

- لطالما كان اليأس شريك حياتك، ورفيقَ أيامك، فقط دعْ للتفاؤل طريقًا.

أقفلتُ الهاتف، وأنا أكثر إصرارًا من ذي قبل بأن اليوم هو أول يوم من حياتي بدونها.

تأمَّلتُ صورتها على الحائط، ربّاه كم هي جميلة!

وهل الجمال كلُّ شيءٍ؟

جمال الخارج لا يفيد حينما لا يكون الداخل أكثر جمالاً.

أدرتُ المذياع لتنساب منه شلالات الفضة المسماة "فيروز"، وهي حقًّا

فيروز:

(أمس انتهينا فلا كنا ولا كانا يا صاحب الوعد خلِّ الوعد نسيانا) لكأنكِ تدرين يا فيروز أن الأمس كان المنعطف؛ بل كان المسمار الأخير في نعش علاقتنا.

كم أنا حُرٌّ بدونها، أشعر أن قلبي عاد شابًّا؛ بل مراهقًا، أحسُّه كالعصفور الصغير الذي للتَّوّ تعلَّم الطيران؛ يودُّ أن يحلِّقَ في كلّ زمان ومكان. أشتاق أن أعيش أبجديات الغزل، حين كنا نريد الوصال، ويمنعنا الخجل. أحتاج للطيش عنوانًا، والخروج عن كلِّ مألوف، كأنِّي أنتقم منها بانتقامي من أيامي معها.

الآن أبحث عن كلِّ محظور معها لأقترفه بكلِّ لذّة، وبمنأى عن أي ضميرٍ يؤنِّب.

لمَ أشعر أني أنتقم من نفسي، لا منها؟!

الهاتف مرة أخرى، لن تكون هي بالتأكيد.

- هل انتهيت من البكاء؟

- أنتَ مرة أخرى، ومن سيكون غيرك؟!

من قال إنني بكيت أصلًا لتسألَني هل انتهيت؟

- امسح دموعك، ثم ردّ عليّ.

- أيّة دموعٍ تتحدث عنها؟ إنّ عينَيّ ملتهبتان لا أكثر، وهي دموعُ ألمٍ، لا فقد!

- وهل هناك ألمٌ أشدّ من الفقد يا صديقي؟!

لِمَ أحسُّ أن هذا الرجل يعرفني أكثر ممّا أعرف نفسي، للحَدّ الذي يرى فيه

دموع عيني من صوتي عبر الهاتف؟

حسنًا لن أبكيَ أكثر، فهي لا تستحقُّ قطرة دمع واحدة.

بودّي أن أبدأ حياتي من جديد؛ لكني لا أعرف كيف! أنا تمامًا كالخارج من سجنٍ أمضى فيه معظم حياته. خرج من مجتمع صغير يعرف كلَّ أفراده، ويشابهونه لمجتمعٍ أكبرَ لا يعرف فيه أحدًا، والكل ينبذه، فأيهما السجن حقًّا؟!

من أين أبدأ؟ وما الخطوة الأولى؟

بالطبع لن تكون البحث عن بديل لها، فقد سئِمْتُ جنس النساء، ولن أكون من الغباء بحيث أسلِّم قلبي أسيرًا لإحداهن، فقد تعلمت الدرسَ جيّدًا.

يرنُّ الهاتف ثالثةً. يا لكَ من مزعج!

- ألن تكفّ عن إزعاجي؟!

- لم أكفّ عن حبك!

- أنتِ!

- نعم أنا التي غادرتُ غاضبةً، وانقلب غضبي ندمًا حال خروجي منك،

أنا التي عزمتُ على أن أنساك، واكتشفتُ أنك عصِيٌّ على النسيان، أنا التي أحبكِ وكفى!

- ماذا أقول؟ وكيف أقول؟

هل في عبارات الدنيا ما يصف سعادتي الآن؟ ألهميني يا قواميس، وأوحي لي يا معاجم، أين نزار ليعبِّرَ عني بأبياته، وأين شكسبير ليكتب مسرحية كاملة تصف إحساسي في هذه اللحظة؟

لقد عادت، وعاد معها قلبي السليب.

- لم أعد، فلم أغادرْ أصلًا، كلُّ ما في الأمر أني حملتكَ في قلبي ورحلت، وها أنتَ تعيدني إليك!

- حسنًا عودي، ولتعدْ معكِ البهجة والسرور، والأنْس والحُبُور.

ولا تنسَيْ أن تحضري معكِ فرحة أيامي التي رحلت برحيلك، وأنفاسي التي هجرَتني منذ هجَرْتِني. وسمعي والبصر؛ بل الفؤاد الذي كان مفقودًا.

ألم أقل لكِ قبلًا أنكِ الروح التي تسكنُ جسدي، فتحييه!

أيامي بدونكِ!

جاءت إليَّ بعد غيبةٍ تسائلني: كيف أيامك بغيابي؟

قلتُ: وهل كانت أيامٌ بدونكِ؟ كلُّ لحظة تمرّ عليَّ بدون أن أؤدِّيَ فروض غرامكِ لا أحسبها من تاريخي، بكِ بدأ ميلادي، وبحبّكِ بدأتُ أعدّ أيامي ولياليَّ.

برضاكِ الربيعُ، وبهجركِ تتساقط أوراق البهجة عن أغصان القلب. معكِ

تنقلب الساعاتُ دقائقَ بل أقل، وبدونكِ تغدو الدقائقُ أيامًا؛ بل أكثر.

تاريخ ميلادي يوم لقائكِ، وموتي هو يوم الفراق.

شوقي لكِ عارمٌ حتى وأنتِ بين ذراعيَّ، فكيف وأنتِ في مجاهل الغياب، وقلبي لا يعرف لكِ طريقًا.

أتعلمين أنَّ القلبَ يدقّ باسمكِ؟ بل يجري حبُّكِ منِّي مجرى الدم، وحين يصل إلى القلب؛ يزيده حبًّا على حبّ. أتعلمين أنّي أتنفس هواكِ؟

أشهق بـ "أحبّكِ"، والزفير هو" أعشقكِ"، والرئتان مستودعٌ آخرُ لغرامكِ

غير القلب، فكلّي أنا حبٌّ لكِ يسير على قدمين!

وبعد؟ أأدركتِ الآن ماذا فعل بي غيابكِ؟ أعرفتِ مَنْ تكونين بالنسبة لي؟

أنتِ لي البهجة، فلِمَ تمنعين عنِّي البهجة؟

أنتِ لي الضحكة، فببُعْدكِ تنقلب ضحكاتي عبرات بؤس وكآبة. بل أنتِ لي الدنيا بأسرها، وحال غيابكِ؛ لا مكان لي في هذا العالم.

ختامًا، قدّمي لغيابكِ خالص اعتذاراتي، فلم أعد أطيقه أكثر!

ليلٌ صبحُهُ فِراقٌ

تأبى عقارب الساعة إلّا قفزًا للأمام، يقولون: "ليلُ السهد طويل"، فما بال ليلي قصيرًا، وأنا التي لم يغمض لي جفن!

ربّما الخوف من الغدِ هو ما يجعله يأتي أسرع، وهذهِ هي الشمس تشرق أبكر من عادتها، خيوط أشعتها تنساب من نافذتي لتعلنَ بداية فصلٍ أول من عذاب غير معلوم النهاية، وكأنّي وأنا أسدل الستائر السميكة على النوافذ أحاول عبثًا

أن أزيدَ في ليلتي الأخيرة معه بضع دقائق قليلة.

أستغرب نومه العميق، وهو الذي من الغد لن يجدَ بجانبه من يلهيهِ عن النوم،لِمَ لمْ يودِّعْني وداعنا الخاص؟ أستكفيه نظراتٌ منكسرةٌ مغلَّفة بالخجل أرسلها له، وأنا واقفة بين أهله؟

أليس من حقي أن يتركَ لي جرعةَ حنانٍ وحبٍّ تعينني على جفاف الليالي المقبلة؟ لا أدري كم من الوقت قضيته، وأنا أتأمّلهُ نائمًا، ساعة، ساعتان، وربّما أكثر. برغم الظلام الدامس أستطيع أن أميّزَ ملامحَ وجهه الجميل، وشعره

المنكوش المبعثر على الوسادة، وتفاصيل جسده.

لا أتمالك نفسي أن أمسحَ بيدي على خدِّه، وأنْ أمرِّرَ أصابعي بين خصلات شعره، أفتقده منذ الآن، على اعتبار ما سيكون.

أقترب منه وأحتضنهُ،أطوِّقهُ بذراعَيَّ، وأضمّهُ بقوة تكاد تخالف بين أضلاعه. بالله عليك قمْ، استيقظْ، أيقظْ مشاعرك الغارقة في النوم أكثر منك!

ألم تجد في حرارة جسدي الملتصق بك ما يغريك لأمر؟

تمضي الدقائق بلا جدوى، وأمضي الدقائق أنا ممزّقة بين اشتياق حاضر، وفقدٍ آتٍ.

تحين ساعة القيام، فأُسْكِت المنبّه بيدي قبل أن يرنّ، ومَنْ يحتاج للتنبيه أصلًا؟!
أقوم من سريري بتكاسل، وأبدأ بتهيئة نفسي، يجب أن يراني قبل رحيله بأجمل صورة، برغم الشحوب، وأخاديد الدمع تحت عينَيّ.

أنظر لحقائبه المُعدّة، وأتمنّى لو استطعت أن أختبئَ بإحداها لعلّي أسافر معه! يجب أن أوقظه الآن، لكنِّي لا أستطيع، صوت أمه في الخارج يوحي بأنها أيضًا لم تذقْ للنوم طعمًا. ما يواسيني في هذا كله أن هناك مَنْ يشاطرني ألمَ رحيله؛ بل لعلّ لها النصيبَ الأكبرَ.

أوقظهُ وأخرجُ لأجدها تكفكف دمعةً تجاهد ألّا يراها أحد، مسكينةٌ هي، ومسكينة أنا. بصمتٍ أقترب، وأضمّها لصدري، فتنفتح مآقي عينيها لتضع الكثير من المِلح على كتفي. ويخرج هو ليرانا، فيقف مشدوهًا، بتماسكٍ مصطنع يمليه عليه غرور الرجل فيه.

ابكِ الآن، وشاركنا الدمع، خيرًا من أن تبكيَ دمًا وحدك.

يتقدّم للباب، ويقف ليعانقَ إخوته، ثم يضمّ أمه الباكية، ويقبّل رأسها بينما هي تمرّغ خدّها على صدره، وتستنشق رائحته. وكأنها تخزنها في روحها لتسترجِعَها أيام فقده. وأنا، فقط هي نظرات من بُعْد!

كم أودُّ أن أفعلَ كما تفعل هي؛ ولكنْ قاتلَ الله الحياء.

ويخرج ملوِّحًا بيده، ويبادلها قلبي ذات التلويح بدقَّاته.

يغيب عن ناظري، وأحس بنبضٍ جديدٍ بداخلي لم أعهده قبلاً، أنه جزءٌ من قلبه زرعه في صدري قبل أن يرحل. سيظل يدق ويدق هاتفاً باسمه كي لا تنطفئ نار شوقي إليه، وسأظل أنا أرعى بذرته تلك حتى أسلمها له حين عودته. أما هو، فلعل المعاملة بالمثل تكون منه لقلبي الذي سافر به معه!

عيناكِ

حينَ وقفتُ أمامكِ أوّلَ مرةٍ، ذُهِلْتُ لتلكَ الزُّرْقة في عينيكِ. رأيتُ فيهما بحرًا متلاطمَ الأمواج يغريني بالإبحارِ فيه، لوهلةٍ تذكّرت تلك الليالي التي قضيتها مفكّرًا فيكِ وشاكيًا حُبّكِ للبحرِ الذي كانَ يواسيني باقتراب أمواجه منّي ساعات الشروق.

إنه ذات البحر؛ لكنه في عينيكِ أنقى وأجمل. هو بحرٌ رائقٌ صافٍ خالٍ من

الكدر، وهو ليس بغدَّارٍ أيضًا؛ بل هو الأمان.

كم تمنَّيْت لو فردت أشرعتي، ورفعت مرساتي، وانطلقت مُبْحِرًا في عينيك نحو اللَّا اتِّجاه! وعندما رأيتُ انعكاس صورتي على سطح بحر عينيكِ أحسست نفسي سعيدًا؛ بل رأيت وجهي يضحك، وسمعت تلك الضحكة بأذنَيّ!

كيف لا يفرح مَنِ استقرَّ في عينَيْ محبوبته؟

وعندما افترقنا؛ رأيت ذلك البحر يتسرب إلى الخارج، رأيته وبعض مياهه تتساقط لتبلل خديكِ، لتزيدني ألمًا فوق ألم فراقكِ. ولا أتوانى أن أمسح تلك القطرات بأصابعي، وأنا أتحسس بيدي خديكِ لأبعث فيكِ بعض اطمئنان أنا أفتقده.

وتظل شريعة الفراق هي ما يقضُّ مضاجع العشاق.

ومرةً رأيتكِ بعينين خضراوين كبساط عشبٍ كسا الأرض جمالاً مدَّ البصر، ورأيتُ فيهما تمايل العشب الطويل مع النسيم، حين تراقصت حدقاتكِ فرحًا بلقائي.

وتراءت لي نفسي في بستان عينيكِ كثمرةٍ يانعة تتدلَّى من عنقود نَضِرٍ، بل شاهدت نفسي منطلقًا أركض على عشب عينيك الأخضر، أجري بكل ما أوتيت من حُبُور، وكلَّما زادت خطواتي ازددتُ راحةً وهناءً. وحين الرحيل؛ كنتِ تسقين ذلك البستان بماءِ دمعكِ الذي فاض،

فانسكب إلى الخارج، ليبلِّلَ وجْناتٍ احترقت من سخونته.

قاتل الله الفراق، ذلك الزلزال الذي تتصدَّع منه القلوب!

وثالثةٌ أراكِ فيها بعينين عسليتين كأشهى ما يكون، لذّة طعمهما سائغةٌ للناظرين. وأظلُّ أحدّق فيهما بنهمِ جائعٍ، جوع مشاعر القلب وليس غيره، وأودُّ أن ألتهمكِ لعلَّ ما في النفس منكِ يهدأ قليلًا، ولا أظنه يهدأ.

وتظلين أمامي كوجبة شهية أشتهيها، ولا أقدر عليها، ولا تبرح عيناكِ الشهيتان تغريانني بشهدهما، وتكونان نافذتين تعكسان بقيّتكِ، وتدلَّان عليه؛ فأنتِ اللَّذة بكلّ ما فيها، وبكلّ ما فيكِ.

ويطول مقامي أمامكِ كعاشقٍ محروم.

تمامًا كيتيمٍ في مأدبة عيدٍ؛ لا يجرؤ على إطعام نفسِه، ولا يجد مَنْ يطعمه! ونظلُّ هكذا حتى الرّمق الأخير، حين تُنازع قلوبُنا، وتلفظ سعادتنا أنفاسها الأخيرة، فالفراق قد حلَّ، ولا خيارَ غير الألم.

وها أنتِ مثل كلّ مرّة تجلدينني بسياط دمعكِ. وكأنّي بحاجة لمزيد وجعٍ وذكريات تزيد في القلب حرقة، فهلّا رحمتِني في لحظتي الأخيرة معكِ!

وآهٍ من ساعة الفراق، وألف آهٍ ممَّا بعدها، وفي الأخيرة.

وحين ودَّعتكِ وداعنا الأخير، أذهلني مرأى عينيكِ، فقد كانتا سوادًا في محيط

بياض. كأنَّ بياضَ الصبح يحاصرِ قطعتَيْ ليلٍ تأخَّرتا بالرحيل، تكادان تتلاشيان بين البياض، ومع ذلك تلمعان بانتصار، فهما الليل الذي يعجز عن محوه ضوء أيِّ نهار. وكان كلَّما غطاهما الجفن كان يغسلهما، فتشرقان أكثر في كلِّ رمشة. وأمامكِ سهرت لياليَّ الأخيرة في عينيكِ، وطالما عشقت السهر والسهد فيهما، فالليل فيهما سرمدي. وحين لاح الرحيل؛ برق ذاك البارق فيهما مبشّرًا بالسيل الذي فاض إلى الخارج منحدرًا إلى الأسفل، وهو ذات السيل الذي أخافهُ، ولم أطلبه؛ بل طالما خشيته، إن كان هو الفراق؛ فلِمَ لا تُهَوّنينه عليَّ؟

ويبقى الفراق هو يوم الوفاة.

وبعد هذا كله أتساءل:

أواقعٌ ما أراه كلَّ مرّة أم هو حلم؟ أم أنَّ عينيكِ ليستا كغيرهما؟ أو هو شوقي الذي يصوِّركِ أمامي في كلِّ مرة أجمل ممَّا سبق؟ أم هي خيالات مُحِبّ أسهَدَهُ الفراق، فبات يمنِّي النفس باللقاء؟

تساؤلات عدّة وما من إجابة!

دمعتان

عند لقائكِ؛ ذرفت عيناي دمعتين، باردةً وساخنة. أما الباردة، ففَرِحَةٌ برجوعكِ، والساخنة حسرة على أيامٍ شقِيتُها بغيابكِ. لا عجبَ، فكلّي تناقضاتٌ حين يتعلق الأمرُ بكِ، فقلبي المتيَّم بكِ، المستلهم دقاته من عشقكِ؛ ينازعهُ عقلي الذي يرفضكِ لكثرة العراقيل بيننا؛ ولأن مستقبل حبنا على كف عفريت.

بدأنا بالحبِّ صغارًا

ولدتُ في هذه الدنيا قبلكِ؛ لكنِّي ولدتُ لأجلكِ، أمضيتُ أول أيامي انتظارًا لكِ، كنتِ قدري الذي كُتِبَ لي قبل خلقي، معدودةٌ هي أيامي التي قضيتها قبل مجيئكِ؛ لكنها كانت عمرًا؛ بل أعمارًا!

استبشرتُ بقدومكِ قبل أهلكِ؛ بل عرفتُ ساعة ولادتكِ قبل أمكِ، حين عمَّ قلبي الحُبُور، ونزلت عليه السكينة بمقدمكِ. كنتُ بدونكِ بعضًا يحتاج إلى

كلِّه، وجزءًا يهفو إلى باقيه، أتيتِ مصحوبةً بالبهجةِ، يسبقكِ البشر، وتتلوكِ آياتُ السعادةِ، فرحةُ الدنيا أنتِ، فأنتِ الثغر الذي يُمكِّنها من الابتسام؛ بل أنتِ الثغرِ والابتسام معًا.

أتيتِ لهذا الدنيا لأجلي، كما جئتها لأجلكِ، خلقتُ لأعشقكِ، أو هو العشق الذي خُلقَ لنتقاسمهُ بيننا، فهذا كلُّ ما نجيدهُ في حياتنا.

حبُكِ قدري الذي لم أرضَ بغيره، وحبِّي قبلتكِ التي لا تملكين عنها تحويلًا. بدأ الحب بيننا قبل أن تتكون بقية مشاعرنا، ونضج العشق فينا قبل أن ننضج أنفسنا، كان الحب قائدنا الذي نسير

خلفه مطأطئي الرؤوس لا نعلم أين سيذهب بنا!

كنا صغارًا على كلِّ شيءٍ، إلَّا على العشق، فقد كَبُرْنا لأجله، وتجاوزنا سنيًّنا لنكون جديرين به. عرفنا الحبَّ قبل أن نعرف الكره؛ بل عرفت حبّكِ قبل أن أعرف حبَّ أيِّ شيءٍ غيرك، كان حبّي لكِ خالصًا، فجاءكِ بكاملهِ، فلم أصرف منه مثقال ذرةٍ لغيركِ، كنتُ أمارس غرامكِ غريزةً لا تعلُّمًا، وإجبارًا لا اختيارًا،

أحببتكِ، ولم أكن أعلمُ أني أحبُّكِ؛ لأني لا أعرف الحبَّ أصلًا! فقط كنت أشعرُ بارتجافٍ في الأطراف، وتسارعٍ في الأنفاس حين أراكِ، شفتاي تيْبسان،

وريقي يجفّ، والعرق يُغرقُ جبيني، كلُّ تلك الشواهد لم أدركها إلّا لاحقًا، صغارًا في الحب كنّا، كانت مشاعرنا قلبيةً خالصة نقيةً، بيضاء صافية جلِيّة، لم تفسدها نزواتٌ من غريزة، ولا شطحاتٌ من شهوة، كنتِ لي أنموذجًا للجمال لم يُخلق إلّا للمشاهدةِ، وإمعان النظر فيه، كنا صغارًا على أن نلتقي، فاكتفينا بالنظرات عن بُعد، وابتساماتٍ كان يخنقها الخجل، ويئدها الخوف.

كان الحب يجذبنا، وصغر السن والخوف يبعداننا. ونحن ضائعان بين مدٍّ وجزر، كنتُ أنتهز الفرص لأختلس النظراتِ إليكِ، ومشاعري متضاربة بين

لذَّةِ رؤيتكِ، وبينَ الخوف من اكتشاف سِرِّيَ الصغير؛ أنتِ!

كبُرْنا قليلًا، فأصبحنا نسترق لحظاتِ اللقاء دقائق معدودةً، دقائقُ كان الشوق يحيلها ثوانِيَ أو أقلَّ، والخوف يجعلها ساعاتٍ وأكثرَ، كنا ننتظرُ تلك اللحظاتِ أيامًا وأيامًا، ونحلم بها أحلامًا وأحلامًا، نلتقي لنتحدث، فنفترقُ بلا حديث، كانت دقائقنا تمضي وتلعثمنا يمنعنا من الكلام، وخجلنا يبني على شفاهنا أسوارًا من صمت، فنكتفي بالنظراتِ والبسماتِ واللَّذَّة البريئة التي يجمّلها الخوف، نفترقُ بعدها، وأشواقنا قد زادت ولم تنقص!

لساني كان صغيرًا، فلم يحوِ عباراتِ عشقٍ، ولا معانِيَ غرام، كنتُ مشتَّتًا بين

إصرارٍ لا يكتمل، وندمٍ لا يرحم، فقبل كلَّ لقاءٍ كنت أشجِّع نفسي على التَّغزُّل بكِ، وأجزم أني هذه المرة سأفعل،ثم يأتي اللقاء ولا أفعل، فأمضي الأيام التي تليها أجلد نفسي بسوط الندم وكرباج الحسرة.

لم أسمعكِ عبارات الغزل، وآهاتِ العشق حينها، فقد كنتُ لا أتقنها، لكن عينيَ كانتا تشعرانكِ بعِظَمِ ما لكِ في قلبي.

كنتُ لا أجد شيئًا ليقال، فأكتفي بالسؤال عن الأحوال، ونظراتٍ يكسرها الخجل! ثم كبرنا قليلًا، وبدأت معالم البلوغ تظهر علينا، عندها فقط أدركتُ أنكِ من جنس آخر، وأحسستُ بالانجذابِ إليكِ أكثر.

حينها بدأ شعورٌ آخر غير الحبِّ يدفعني لكِ، وهو الفضول، عقلي الصغير كان منبهرًا بكونكِ من الجنس الآخر، كنتِ ككتلةِ الألغاز أمامي، أسئلة شتَّى تنتظر الإجابة. كنت أحتاجُ كثيرًا أن أعرف الفارق بين الذكر والأنثى، الصّبي والفتاة، كان يحيِّرني منظركِ، لم أنتِ أرقُّ وأجمل وأنضرُ منِّي؟ ولِمَ أنتِ ناعمة هكذا؟ وما شعركِ الطويل هذا؟ أسئلة عدَّةٌ كنت أتلهَّفُ لأعرف إجابتها منكِ، أو أكتشفها فيكِ بنفسي.

ثم حانت ساعة الغيرة!

ذاك الشعور البغيض المُحْرق. لم يكن قلبي الصغير يقوى على احتمال نيران الغيرة تلتهب فيه، فتأتي على الأخضر واليابس. بدأت الغيرة تزاحم الحبّ في

قلبي، وبدأت توعز لدموعي بالترقرقِ في عينيَّ حينًا، وفي غسل وجنتيَّ أحيانًا، كنتُ أتجرَّع الغيرة ألوانًا حين أراكِ تلعبين مع غيري من الصبية، كانت تصرفاتكِ عفْوِيَّة بريئة؛ لكني اعتبرتك لي وحدي، كنتِ مملكتي التي أسكنها بمفردي، وأحكمها كما يروق لي، كنتِ وطني الذي لا أطلب غيره، وكنت أميركِ الذي لا يرضى أن ينازعني فيكِ أحد.

كبُرنا أكثر، وكبُرت مشاعرنا معنا، وكانت القُبْلة الأولى!

فررتِ بعدها خجلًا، وجلستُ في مكاني دهشةً، وإعياءً، طعمها ما زال في فمي، وإن تلتها أخريات، فالأول من كلِّ شيء له مذاقٌ خاصّ، تختلط فيه المتعة، واللّذَة مع الذكرى، فيغدو مزيجًا لا يُنْسى.

بدأنا بعدها ننظر لبعضنا بشكل مغاير عن ذي قبل، فالغريزة تأبى إلَّا أن تصيح: أنا هنا!

أذكر حين كنتِ تتحسَّسين شاربي الذي بدأ بالظهور بانبهار، وأنا أتحاشى النظر إلى بدايات الأنوثة فيكِ خجلًا! وحين اكتملت أنوثتكِ، بدأ هرمون الدلال يسري في عروقكِ، عندما أدركتِ مقدار لهفتي عليك، عندها بدأت فصول التمنُّع التي أحرقتني، عرفت حينها السهر والألم والبكاء، كان منعطفًا متوشّحًا بالوجع، ومسربلًا بالدمع. بداتُ أرى من الحبِّ وجهه القبيح، وأنا الذي ظننتُهُ ورديًّا، انقلب العشق بعدها لمزيدِ ألمٍ، وكثير عبرات، وغدا مؤلمًا أكثر من كونه ممتعًا،

وبدأ الوصال يشحّ، والهجر يعلن عن نفسه أكثر فأكثر، عندها تمنّيتُ لو بقينا صغارًا، وبَقِيَ حبُّنا بريئًا كما بدأ، فأنتِ لم تعودي كما كنتِ، ولم يعد لقاؤنا سهلًا كما كان، والحبّ ذاته لم يعد جميلًا مثلما كان قبلَ!

حينَ ينزلُ القمرُ

أقبلتْ كأنسام الصباح، أتتْ تنثر السعادة بخطواتها كأنها تباشير الفرح. كانت تتهادى، ووقع خطواتها موسيقىً حالمة تصبُّ داخل أذنَيَّ.

خطواتها كانت على جسرٍ من أضلعي، وانتهى بها المطاف أن وصلتْ إلى قلبي الذي كان فاتحًا لها ذراعيه مرحبًا بمن أشقته حبًّا. جلستْ على عرش

قلبي عندما جلستْ أمامي، بقيتُ طويلًا لم أستوعب الموقف، أأنا في حلمٍ جميل؟

إن كان هذا حلمًا، فأدعو الله ألَّا أفيق منه أبدًا، كانت عيناي معلَّقتَيْنِ بها، أكاد أخترقها من شدَّة نظري إليها، كنت مشدوهًا بحبِّها، مبهورًا بجمالها، مفتونًا بخجلها اللطيف الذي علَّق نظراتها بالأرض. لم أستطع قولًا، انحبس لساني داخل فمي، وأصبحت لا أقوى نطقًا، ضاعت كلماتي، وتبخَّرت جُمَلُ الغرام التي كنت أعدّها ليلة اللقاء. فقط هو النظر إليها، ذاك ما كنت أستطيع فعله، كنت أنظر وأتعجب، وأعيد النظر، وأزداد عجبًا، ما كلُّ هذا الجمال الذي حباه الله لأنثى؟!

كنتُ أعلمُ أنها فاتنة، لكنَّ فتنتها غلبت كلّ سابق علمٍ عندي.

قوامٌ جميلٌ، وجسدٌ رشيقٌ، وأنوثةٌ طاغيةٌ، وجمالٌ يوسفيٌ قلَّ في النساء له مثيل.

كنت أجول بنظري فيها أبحث عمَّا يشينها، أغفلتُ مواطن الجمال فيها؛ لأنها كلها جمالٌ في جمال، وأخذت أبحث عمَّا ينقصها، أو يخفف من وقع حسنها عليَّ، فلم أجدْ من ذلك شيئًا. هي كاملةُ الأوصاف، والكمال لله وحده. فطنتُ للتّو بأن نظراتي تزيدها حرجًا على حرج، وتزيدُ ارتباكها ارتباكًا. تكلمتْ بصوت خفيض بعد طول صمت: لمَ تنظرُ إليَّ هكذا؟

قلتُ: وهل أستطيعُ غير ذلك؟

ردتْ: لكنك تزيدُ في خجلي، أشِحْ بعينيكِ عني علّي أعود لطبيعتي.

قلتُ: ليتني أستطيع، فللباقي مني فيكِ مآربُ أخرى، مددتُ يدي ووضعتها على كفِّها، وسحبتها بلطفٍ، ووضعتها على يدي الأخرى، فأصبحت يدها أسيرةً بين يَدَيَّ اللَّتيْن تضمَّانها بشوقٍ، وحنانٍ، وحبٍّ تضاعف في هذه اللحظة أضعافًا كثيرة.

كنت أحرِّك يدي على يدها، وكنتُ أبثُّ لها بعض شوقي وحنيني، وأبعثُ الدفء في قلبها، والطمأنينة لها، ووصلتْ الرسالة سريعًا، حين رفعتْ بصرها، ووضعت عينيها بعينيَّ للمرة الأولى منذ

قدومها، وعند التقاء الأعين؛ بدأتُ أبحرُ في ذلك المحيط اللُّجِّيّ البالغ الشفافية.

تلك العينان اللذيذتان، الواسعتان، الساحرتان، كأني أشاهدُ فيهما البياضَ والسوادَ للمرةِ الأولى، كان مزيجهما سحريًا. كانتا أشبه بنافذتين حرصتُ أن أطلَّ عبرهما إلى قلبها؛ لأنظر هل لي فيه مثل ما لها بقلبي الذي بات أسير غرامها، ابتسامةُ خجلٍ ممزوجٍ بغنجِ أنثى ليست كالإناث، ابتسامة زلزلت أركاني، وحطمت بقية ثباتٍ كنت أتمسكُ فيه بما أوتيتُ من قوة، لا أريدُ أن أظهر أمامها على حقيقتي، وأظهر ضعفي أمام جبروت حبِّها، ووحشية حسنها؛ لكنَّ تلك الابتسامة أصابتني في مقتل، فزال التماسك،

وتلاشى التَّصنُّع، وذهب الثبات إلى غير رجعة.

تأملتُ تلك الابتسامة القاتلة، على تينك الشفتين الناحلتين الممتلئتين فتنةً وحُسْنًا. شهادةُ وفاةٍ هي لقلبٍ لم يعدْ يطيق أكثر، وبدايةُ حياةٍ لحبٍ يزداد في كلِّ لحظةٍ أضعافًا عديدة. وجهٌ كامل الاستدارة كأنه البدرُ ليلة عُرْسِه في منتصف الشهر، ومُضيءٌ كما البدر مضيء، وجميلٌ كأنما البدر أحد أعوانه، والثُّرَيَّا من جواريه.

الشعرُ البُنِّيّ كأنه خُصَلٌ من نور تجمَّعت فوق رأسها لتزيدها وهجًا على وهج، كان شعرها يطير به الهواء ليلامسَ أطرافه بعض وجهي، وكنت أقترب أكثر،

فأكثر حتى دفنت وجهي في خُصَلِها البُنِّية مستنشقًا أجمل عبيرٍ يمكن أن يدخل رئتي يومًا.

بقينا طويلًا، وتحدَّثنا قليلًا، كان حديثنا بالعيون، لا بالألسن، ومرَّ الوقتُ الطويلُ كأنَّه لمح بصر، أو أقلّ. واكتفينا من الحبِّ بالقدر اليسير، فلم نَدَعْ مجالًا لتأنيب ضمير، كان الحبُّ عذْريًّا، وكانت البراءة ترفرف في أرجاء المكان.

وحين الوداع، كانت العَبَراتُ، لا الكلمات، كانت الدموع تتساقط في الداخل، يمنعها من الخروج بقيةٌ من تماسكِ رجلٍ شرقي، يرى أن الضعف يكونُ في كلِّ حالٍ إلَّا أمام الأنثى التي يُحِبّ!

ذهبتْ وذهب القلبُ معها، فهو يرى مكانه هناك لا بين أضلعي، وكلِّي ثقة بأنها سترعاه خيرَ ما تكون الرعايةِ، فهو من أوجد لها تلك المكانة عندي، وهي من ستعيده لي إذا قدر الله لنا لقاءً آخر، وليت ذاك قريب!

أنتَ.. وإما الموت!

سأجلسُ على سِكَّةِ القطار، بعد المحطة مباشرةً، وأنتظرك، لن أبرحَ مكانًا، فإمّا أن يأتيَ القطار بك؛ أو تأتي منِيّتي بذات القطار الذي لم يحملك. وعدتني أنك ستأتي، وأخلفت وعدك غير مرة، لم أعدْ أطيقُ انتظارًا، ولم يعدْ بوسعي تحمُّل صدمةِ قطارٍ آخر يخلو منك!

أصبح عدّ القطارات همّيَ اليومي، ويأتي كلّ قطار من مدينتك تمامًا في

موعده، يأتي محمّلًا بأملٍ عظيمٍ من قلبي المكلوم بفراقك، وحين تُفتحُ الأبواب، وينهمر الرُّكّاب نزولًا كنت أتفرَّس الوجوه بحثًا عن وجه طالما عشقته. ومع كلِّ راكبٍ كان أملي يتناقص، حتى يضمحلّ هذا الأمل حين تُغلق الأبواب معلنةً خلوّ العربات من كلِّ راكب، وخلوّ قلبي من كلّ أمل، ونفسي من كلِّ فرح، ويغدو القطار الذي أتى بالأمل؛ مصدرًا لليأس؛ بل والإحباط.

حسنًا، سيكون القادم هو الفاصل، فإمّا أنتَ، أو الموت! وسحقًا لحياة هي بدونك أتفهُ من أن أمارسها، فقد مضت أيامي السابقة بدونك شبح حياة، أشياء أفعلها بدون روح، بلا استمتاع، هي حياة خاليةٌ

من الحياة! أنت روحي، فإن لم تأتِ؛
فلتذهبْ روحي غير مأسوفٍ عليها!

حبٌّ مات طفلًا

ربَّاهُ كمْ أكرهُ مناوبةَ الليل! ففيها أصارعُ أمرين: الملل والاشتياق، المللُ حيثُ تسيرُ الدقائقُ متثاقلةً، بطيئةً، رتيبةً. كأنها دهر. والاشتياقُ حيثُ الهدوءُ، والسكينةُ، والليل تلوح بذكراك لي، وتوحي إليّ بك، هذه الممرات الخالية تشتكي من كثرة مروري فيها، وتلك الزوايا تئنُّ ترديدًا لبعضِ أنيني عندها.

لا عمل لديّ يذكرُ إلّا تذكّركَ، فالمرضى نائمون، والأمور تسيرُ كما

ينبغي. العكسُ تمامًا من أمورنا التي تأبى أن تسيرَ كما نشتهي.

هذه المرأةُ التي تقبعُ بجوار سرير ابنها المريض تعجزُ عن النومِ خوفًا عليه، كأنها تخافُ أن تغمضَ عينيها، فلا تراهُ بعدها، تقضي ليلها ترقبهُ بعينِ العطفِ، وبقلبٍ قد امتلأ شفقةً عليه.

قد شغفها حبُّهُ للحَدِّ الذي لن تتوانى فيه أن تعطيه من أيامها أيامًا، ومن عمرها عمرًا، هي أنا حين وداعكَ الذي زلزلَ أركاني. بتُّ أرقبُ سيركَ مبتعدًا، ولا أغمضُ عينيَّ خوفًا أن تضيعَ أجزاءٌ من الثواني لا أراكَ فيها، فبقية العمر لن يكتحلَ بصري برؤيتك، وبعدما غبتَ عن ناظريَّ أغمضتُ عينَيَّ؛ حتى لا يخالطَ صورتكَ في خيالي صورة أخرى، وبتُّ

أحيا على هذا الخيال الذي هو كلُّ ما بَقِيَ لي منك.

كم وددتُ ألَّا أفتحَ عينَيَّ أبدًا لتبقى صورتكَ هي المشهد الأخير في حياتي!

أما تلك المرأة الراقدة تستجدي النوم علَّهُ ينسيها بعض آلامها، تلك الآلام التي هي من يطردُ النوم عنها.

تتقلبُ يمنةً، ويسرةً، ويخالطُ أنينها دعواتها، تدفنُ وجهها في وسادتها تارةً، وتغطي رأسها بالوسادة تارة أخرى، تستلقي ثم تجلسُ، ثم تعودُ فتستلقي، تضيقُ من تأخُّر النوم عنها، وضيقها يبعد عنها النوم أكثر.

ستُشفى لا شكَّ، فمرضها ليسَ بالخطير؛ لكنِّي أنا متى سأشفى منكَ يا

مرضي الذي طالما أحببته! مثلها تمامًا كنتُ أتقلّبُ في فراشي لياليَ هجرك الذي أشقاني كثيرًا، كنتُ أفترشُ حنيني، وأتدثَّرُ بلهفتي، وأحتضنُ اشتياقي، أشواقي أسخنت دموعي، فأحرقت وجنتيَّ، وحنيني قسم قلبي نصفين: نصفٌ يبكي فراقك، ونصفٌ ينتظرُ رجوعك! كنتُ أفكرُ كثيرًا لِمَ كُتِبَ عليَّ كلّ هذا الشقاء؟! لِمَ أرَ من الحبِّ إلَّا وجهه الكريه؟ لِمَ اخترتكَ أنتَ بالذات لتكون حبيبًا لي؟

أهو سوء اختيارٍ منِّي؟ أم هو امتدادٌ لحظٍّ تعيسٍ رافقني طيلة أيامي؟ لستَ سيّئًا جدًّا أعرفُ ذلك؛ بل فيكَ من الصفاتِ ما علّقني فيك أكثر، لكنَّ عيبك أنك لا تقّدر الحب فيَّ ولا توفِّيه حقّه، فها أنت تعاملني بما يمليه عليكَ الحبُّ الذي في فؤادك لي،

وهذا لا يكفي، ففي قلبي لك الحبُّ أضعافًا، فليْتك تعامله بما يستحق.

أتعجبُ كثيرًا من تلك المرأةِ التي تذرع الممرات ذهابًا وعودة، هي تمارسُ الانتظار بطريقتها، فتتعبُ أقدامها بدلًا من أن تتعب تفكيرها. تسيرُ ساهمةً لا تعبأُ بمن يقابلها أو يحاكيها، واجمةٌ، ذاهلةٌ، مُطرقة. آلمتها الوحدةُ أكثرُ من المرض، وأوجعها فراقُ من تحبّ.

هي تشعرُ بالضيقِ، وتروم الخروج من هنا، تصارعُ الحنين إلى أهلها وتغالبُ الشوق إلى منزلها. تمامًا كما أصارعُ الاشتياق إليك منذ هجرتني، من تلك اللحظة وقلبي يذرعُ مسافات الحنين سعيًا إليك، يقبعُ على رصيف الانتظار يرجو

عطفك ويترقبُ رحمتك، كيتيمٍ يمضي ليلة العيد عيونهُ معلقةٌ تجاه مدخل البيتِ يترقبُ عودة أبيه الذي ذهبَ ليحضر لهُ هدية العيد، لا الأبُ سيحضرُ، ولن يكون عيدُ الصبي سعيدًا كالآخرين!

أنا لا أريدُ منك هدية، أريدكَ أنت، فأنت هدية عمري، بل أنتَ العمر كله! أنا اليتيمةُ في ملكوتِ هواك، أو ليس قلبكَ ملجأً للأيتام؟! عهدتكَ حنونًا عطوفًا، فمن أين أتيتَ بكلِّ هذه القسوة؟

لم أعدْ أعرفكَ الآن، أو قد أكون لم أعرفك سابقًا، حِرْتُ لا أعلم أيّهما أنت: الرجلُ الذي أحببتهُ قبلًا، أم هذا الذي أراه أمامي وينكرهُ قلبي قبل عينَيّ؟ قسوتكَ أهالت التراب على حبِّي، فدفنته حيًّا، ولن يُبعثَ الحب يومًا!

يزعجني كثيرًا صراخ ذلك الطفل اللحوح، يصرُّ كثيرًا على الخروج فقد خفَّت آلامه، وأمه المسكينة تحاول إقناعهُ بأن الطبيبَ لم يأذن له بعد.

عقلهُ الصغير لا يدركُ لمَ هو بحاجةٍ إلى إذنٍ من طبيب كي يذهبَ إلى بيته، ومن يكون هذا الطبيبُ أصلًا، وما الحاجة إليه؟

ولمَ هو مقيدٌ بهذا السرير بينما أقرانهُ يلهون ويلعبون ويمارسون طفولتهم؟ وبأيَّة سلطةٍ يحبسهُ الطبيبُ في هذا المكان الكئيب؟!

هو صغيرٌ لا يدرك كلّ هذا، مثلما هو قلبي لم يدرك يومًا أيَّة سلطة يمارسها عليه حبك، وأيّ اتجاه قسري لمشاعري التي تتجه إليك إجبارًا لا اختيارًا.

لمَ أنا أسيرةٌ لهواك؟ ولماذا أتحمّلُ كلَّ هذا منك؟

لم أنعم بحبِّك يومًا، ففصولك جلّها حزين، الربيعُ شحيحٌ، وسماؤك ملبَّدة دومًا بغيومِ السأم. غيوم تعكِّر الجوَّ والمزاج، ولا تمطرُ أبدًا! مطرُ وصالك إنْ هطل لم يكُ غزيرًا، كان يبلُّ الرّيقَ، ولا يروي.

لم أروَ منك يومًا، بل شارفتُ على الهلاكِ عطشًا أيامًا.

كنتُ أتسوَّلُ منكَ الحب وأستجديه، وأكثرُ المتسولين ذلًّا هو من يطلبُ المشاعر، لا الخبز!

نعم كنت ذليلة لهواك، أعترفُ بهذا، وأعترفُ أيضًا بأني كنتُ سعيدةً بذلك، بل

ومستمتعةً بهِ، ثم بعد هذا كله تصرعني برحيلك!

ما أقسى قلبك الذي لم يحنّ يومًا! هو من حجرٍ؛ بل الحجرُ ألين!

في تلك الغرفة القصِيّة نقاشٌ حادٌّ بين أمٍّ وابنتها المريضة، تحاولُ الأمُّ جاهدةً إطعامها وهي تعاندُ وترفضُ الطعامَ. تتذرعُ بأن لا قابليةَ لها، وبأنها كبيرةٌ بما يكفي لتعرف مصلحتها، والأمُّ بين نارين: نارُ خوفها على ابنتها وشفقتها عليها،ونارُ عدم إغضابها، وهي مريضة هكذا. حيرةٌ كبرى مشوبةٌ بوجع!

أتذكرُ عندما أبلغتني بقرارِ رحيلك المفاجئ؟ أتذكرُ كيف بدا الوجومُ عليَّ وحرتُ لدقائقَ معدودة، فلم أعرف ماذا

أفعلُ وماذا أقول؟ كتلك المرأةُ كنتُ حينها، كنتُ مشتتةً ومحتارة. أأغضبُ وأحتجُّ، وأعلنُ العصيانَ على رحيلك مثلما تسولُ لي نفسي؟ أعرفُ عنادكَ، وأخشى أن يزيدكَ فعلي تصميمًا على الرحيل. لم تُثْنِكَ دموعي وتوسلاتي وهي تخاطبُ قلبك، فهل سيفيدُ عصياني وهو الذي يخدشُ غرورك الذكوري؟! أم أكتمُ مشاعري، وآلامي وأحبسُ دموعي لتتسرّبَ إلى داخلي بدلًا من الخارج، وأقفُ أمامكَ بتماسكٍ مصطنعٍ تُمليه عليَّ بقيةٌ من كبرياء وبعضُ كرامة؟

أخافُ أن تفسّرَ موقفي هذا بعدم الاكتراث، وبأنَّ بقاءك ورحيلكَ عندي سيَّان! دومًا كنتَ تفسرُ أفعالي بغير ما أنويها، وطالما رافقك سوء ظنك بي. وأنا

التي كنتُ أغضبُ نفسي لأرضيك، وأعاندها لأطيعك.

لا أعلم حقًّا، ألنا كثيرة عليك، أم أنتَ القليلُ عليَّ؟!

موقفٌ محيرٌ ومُرْبك لا شكَّ في ذلك، ألختار العصيان مع خطر عنادك، أم الكتمان المحفوف بسوء الظن منك؟ باللهِ أرشدني كيف أتصرفُ في موقفي هذا!

لم يهدأ روعي بعد الذي حصل البارحة، تلك المرأة الطاعنة في السن والبالغة اللطف والحنان كان الأمسُ هو آخر عهدها بالحياة.

سكنت أنفاسها وتوقف قلبها المتعب عن الضجيجِ دقًّا. كان الجميعُ حولها، الأولاد والبنات والأحفاد، يبكون،

يتضرعون، ينزفون الدم دمعًا، يلهجون بالدعاء، ولا فائدة!

فقد خرجت الروح الطاهرة إلى بارئها. عبثًا أحاولُ نسيان منظرهم حين أبلغهم الطبيبُ بوفاتها، اختلط الصراخُ بالبكاء، والعويل بالحوقلة، ضُربت الصدور وشُقَّت الجيوب، وسال الدمع أنهارًا!

كان منظرهم مروّعًا، حزينًا إلى حدّ الشفقة.

كنتُ حزينةً لأجلهم أكثر من حزني عليها، تمامًا مثلما حزنتُ ساعة رحيلك، لم لمتني على بكائي ساعة فراقك إذًا؟ ألستُ مثلهم أفارقُ حبيبًا؟

بل فقدي قد يكون أشد، فهم فارقوا من تركتهم رغماً عنها وليس باختيارها كما

تفعل أنت! وهي ذهبت إلى دار القرار، وليس لأحضان أخرى كما هي الحال بك أنت!

باللهِ كيف تريدني أن أتقبلَ هذا النوع من الفراق؟

أزعمُ أن موتك أهون عندي من رحيلك، فكلاهما فقدٌ وألمٌ وبكاء، لكن الثاني تخالطهُ الغيرة التي تقتلُ كلَّ ذرَّة كبرياء أنثى في داخلي.

لن أتمنَّى لك التوفيق معها؛ بل سأكرسُ دعواتي أن يصيبك منها ما أصابني منك، وأن تهجرك لغيرك، وأن تقف موقفي هذا؛ ذليلًا، منكسرًا، مهزومًا. وعندها ستدركُ فداحةَ ما فعلت بي، وستموتُ ألف مرة قهرًا وخذلانًا، وندمًا.

لا تندم على ما فعلت بي حينها، فلن يفيدك الندم، ولا تحاول الرجوع، فأنت قد متّ بالنسبة لي ساعة رحيلك عني!

حسنًا، لا حاجة أن تموت، فسأميتكَ بنفسي! وأسقطكَ من ذاكرتي، بل سأنتزعك منها انتزاعًا، وألبسُ الأسود حدادًا عليك، وأتقبّلُ العزاء فيك، وسأواري جثمان حبّك في الثرى مكفّنًا بنسيج ذكريات لم يكن ناصع البياض كما ينبغي. ولا تأسَ على ذلك، فهذهِ صنعة يديك وسجل أفعالك، وستكون جنازة مهيبة، سيمشي فيها كلّ عاشق يصون هواه ويكرم معشوقه، ولن أبكي فيها، فقد أبكيتني في حياتك ما يغني عن بكائي حال موتك. وسأضعُ على النصب تأبينًا لن

يكون شاعريًّا بالقدر الكافي، فقد كتبتُ فيه: (هنا يرقدُ حبٌّ مات هرمًا وهو ما زالَ في طور الطفولة).

مُحِبٌّ زادُهُ الخيال!

أراكِ محلقةً في سمائي، تطيرين بأجنحةِ من جمالٍ.

تتوقفين متى شئتِ على سحابةِ حلمٍ عابرة، تتكئين عليها في دعةٍ، وتحضنكِ هي بحنانها. تغزلين من أشعةِ الشمسِ تاجًا ذهبيًّا يزّين شعركِ الليليّ، وتجمعين قطراتِ المطرِ بيدكِ لترطّبي بها خدّيْكِ المتورّدَيْن. تغنين بصوتكِ الشَّجِيّ أجمل ألحان الغرام، ألحان عذبة شَجيَّة تنفذُ من الأذنِ لتستقرَّ في القلب. سامقةٌ أنتِ عن

بناتِ الأرضِ جميعًا، فلا تطالكِ واحدة منهنّ.

ثم ما تلبثِين أن ترسلي لي النظرات، السهم تلو الآخر، نظراتٌ حبٍّ مشوبة بإغواءٍ، فحواها: هلمَّ أقبل! فعندي لك كل ما تريد، وهل أريدُ شيئًا غيركِ؟ وأنا في قراري، أكاد لا أراكِ إلّا بقلبي. عاليةٌ أنتِ جِدًّا، أعلى من حَدِّ نظري، وأبعدُ من سقف أحلامي، فكيف الوصول إذًا؟ ضربًا من المستحيل أخالهُ، وعندما طال انتظارك، وقصرت حيلتي؛ مددتُ جسرًا من خيالٍ صعدتُ عليه تسابقُ خطايَ دقّات قلبي. كان الطريق طويلًا، بطول أيام الانتظار، كلُّ خطوة تأخذُ من عمري يومًا، حتى خشيتُ أن ينقضيَ العمر، ولم أصل إليكِ

بعد، وكلّما اقتربتُ أكثر، زاد شوقي أكثر وأكثر. وكلما أنهكني المسير وهدّني التعب؛ رنوتُ إليكِ لأجدكِ فاتحةً ذراعيكِ لتستقبليني في أحضانكِ، فينقلب الوهن شدةً، والخمولَ نشاطًا.

وعند الوصول، يكون اللقاء ساخنًا، بسخونة الدمع الذي ذرفتهُ انتظارًا لكِ، ويتحقّق الحلمُ حين تكونين بين ذراعيَّ، وقلبي بين أضلعكِ. ونظلُّ نرتشفُ الغرام ألوانًا، بعدما أوقفنا الزمان، وتناسينا المكان. ويغدو الكون خاليًا إلّا منكِ، وحبّكِ، وأنا ثالثكما!

ثم تتراءين لي أميرة أسطورية ذات بهاء وحسن، أميرة قلعة حصينة، وملكة قلوب عديدة، جمعتِ الدنيا بقبضتكِ، وقلوب الرجال برمشكِ.

تتربعين على فراش وثير، تحيطك الوصيفات بدلالهنّ، والدنيا بإقبالها. ويغدو لكِ مرور الأيام مجرد تأكيد يتبع الآخر أنكِ محور عصركِ، ودرّة زمانكِ، وشهدهِ، وعذوبته. تطلين على الشمس، وهي تتمطّى بازغة بتثاؤبٍ، فتتوارى خجلًا منكِ، ويصبح الكون ظلامًا إلّا من إشراقة مصدرها أنتِ. ولا عجبَ بعدها أن تكوني قبلة الأنظار، ومهوى النفوس.

أما القمر فقد خرَّ من عليائه ليقدم لكِ فروض الولاء والطاعة، وهو يُمنِّي النفس برضاكِ، وأن يكون من حاشيتكِ، معايير الجمال هي معاييرك، ومقاييس الحسن مقاييسك، وأنتِ هي أنتِ، لا أجد وصفًا أفضل، ولا تعبيرًا أبلغ!

وأنا؟ أين أنا؟ بل متى أنا؟

بيني وبينك مسافات تقاس بالزمن.

ليست طريقًا فأمشيه، ولا صعابًا، فأجتازها، بيني وبينكِ عصورٌ لا أميال، فكيفَ أتخطَّى العصور؟! أهو اليأس إذًا؟ إحدى الراحتين، أم الراحة الأخرى؟ الموت.

لا هذه ولا تلك؛ بل هي انتفاضة مُحِبّ يأبى إلّا وصال محبوبته.

فأسلُّ سيف خيالي من غمده لأجدَه انقلب آلة للزمن، مسرعًا أمتطي صهوتها لتعبر بي الأزمان، تلو الأزمان. وأغمض عينيَّ خوفًا ممَّا أرى، لأستيقظَ على يد حنون تعبث بخصلات شعري، وتناديني بأحبِّ أسمائي: "حبيبي.. استيقظ.. أنت في حضني"! وبلهفة المُحِبّ أفتح عينيّ لأرى

أجمل مشهد، حبيبتي أمامي، وماذا أريد بعد؟ وأمضي ليلتي أغترف من نهر الحب بكؤوس من شوق، وأجاهد لأطرد من رأسي حسابات الزمان والمكان، فقد تجمَّد الزمان، وضاع المكان،

وغدا الحب هو المكان، وهو الزمان!

ثم، وبعد انقضاء هذا كله، أكتشف متأخِّرًا بأنِّي حبيبُ خيالي!

فلا أحزنُ؛ بل أحمدُ الله على أكبر نعمه؛ خيالٌ يقرِّب البعيد، ويجعل المستحيل واقعًا، أمَّا الحبيبة؛ فلم تُخلق بعد!

لمنِ الزينةُ إن لم تكن لها؟

كان الموعدُ المنتظر، الذي علّقتُ عليه آمالي، وكان محورَ أحلامي منذ أمَدٍ. كنتُ أترقَّبُهُ بجنون، كانت الأيام تمضي بطيئةً، كريهةً، ثقيلة. استعددتُ له جيّدًا، حتى أنّي حضّرتُ كلّ ما كنتُ أنوي قوله، ومثّلتهُ أمام المرآة. ليلة اللقاءِ لم تكن أيّة ليلةٍ، فقد جافاني النومُ فيها، وكانت فرحتي تدافعهُ وأشواقي تطرده. لقاؤنا كان في الثامنة، وبيني وبين الثامنةَ الآن بضع ساعاتٍ بالكاد تكفي لأجهّز نفسي كما ينبغي.

حلقتُ لحيتي، وارتديتُ أجمل ملابسي، وتعطَّرْتُ بأفخر عطوري، وحملتُ هديتي التي أزعمُ أنها ستروق لها كثيرًا. وفي طريقي مررتُ ببائع الزهور، وانتقيتُ لها أجمل باقة ياسمين. أزِفَ الوقتُ، وحانت لحظة اللقاء، وبدأ القلبُ يخفقُ بشدَّةٍ والأنفاسُ تتسارع. في ذاتِ المقهى الذي تُحب، بأنوارهِ الخافتةِ، وزواياهُ الشاعرية، وموسيقاهُ الهادئة التي تعطيهِ طابعًا رومانسِيًّا خلَّابًا. مكانٌ كهذا يستحقُّ أن يحتضن لقاءنا بعد طول غياب.

جلستُ على الطاولة التي حجزتها مسبقًا، كلُّ الأمورِ تسيرُ كما ينبغي لها، ولم يبقَ إلَّا أن تأتي ويأتي الفرحُ معها.

لا أعلم كم انتظرت؛ لكنه بالتأكيد وقتٌ أطول ممّا ينبغي، وأكثرُ ممّا أحتمل. انتصفَ الليلُ ولم تحضر، وحيدًا كنتُ إلّا من وحشتي وبعض كآبةٍ. وكثيرٌ من المخاوفِ، وأعقابُ سجائرٍ لا حصر لها.

حانتْ لحظةُ الرحيلِ، فالمقهى سيقفل أبوابه، وأنا بي من الإحباط ما يفقدني الإحساس بالزمان والمكان. ركبتُ سيارتي عائدًا أدراجي، محمّلًا بالخيبة، محفوفًا بالحزنِ مسربلًا بالهمِّ، محطمًا منكسرًا مقهورًا.

ألمي يحتويني، ووجع الفؤاد يلتهمني.

توقفتُ ووضعتُ وجهي بين كفّيَ لأسكنَ بعض هذا الدوار، فصدمني أن لحيتي نبتتْ من جديد، وكأني لم أحلقها أصلًا! نظرتُ إلى الباقةِ بجواري لأجدَ

الياسمين قد ذبُلَ وفقد نضارته، كيف وعمرهُ بضع ساعاتٍ لا أكثر! ملابسي الفاخرة التي حرصتُ أن أبدو فيها بأزهى حُلَّةٍ أراها انقلبت أسمالًا بالية! يظهرُ لي أن بقدومكِ كانت الحياة، وعندما لم تحضري فقدَ كل شيءٍ حياته. وكأن كلًّ ما حولي يصرخُ فيَّ: لمن زينتكَ إنْ لم تكن لها، وما حياة الورد إن لم تشمّهُ هي؟!

S.M.S

تقول لهُ: أحببتُ فيك الطفل اللّحوح، وأحببتُ أن أكون أمك التي تعطيك حتى ترضى. ويقولُ لها: انتقلتُ من قلبِ أمي إلى قلبكِ، فدلّليني كما كانت تدللني. لا أجمل للرجلِ من قلبٍ يَحِنّ عليه كما لو كان طفلًا صغيرًا!

تقولُ لهُ: لن أجاري حبّ أمك لك بالتأكيد؛ لكن حبها غريزة، فأنت جزءٌ منها قد انفصل عنها، أما أنا فقد أهديتك

حبِّي دونَ كلّ رجال الأرض.ويقولُ لها: أعظم هدية تلقيتها هي حبكِ، كانت مغلفةً بالتقدير والاحترام، وبدوري أرجعتُ لكِ الهدية مضاعفة، فأنا الآن أحبّكِ أكثر.

تقولُ له: اقتنعتُ بكَ قبل أن أحبَّكَ، فأحببتك بعقلي وقلبي معًا. معكَ لم أعانِ من صراعِ العقل والقلب، حينَ يرفض الأولُ العشقَ والثاني يقترفه. ويقولُ لها: أما أنا فبكلِّ جوارحي، وبكامل الحواس عشقتكِ، وضعتكِ قبلةً لأشواقي أينما وجهتها تصلكِ، وأينما نظرتُ ثمّةَ أنتِ ولا غيركِ.

تقولُ له: كن لي وحدي، وسأغنيكَ عن غيري، سأكونُ لكَ كلّ النساء؛ السمراء

والشقراء، القصيرة والطويلة، وسأراكِ بعيني الرجل الوحيد. ويقولُ لها: سأكونُ لكِ وحدكِ؛ لأني أريدكِ وحدكِ من كلِّ النساء، أنتِ لي الحلم الذي تحقق بعد عناء وطول يأس، فهل سأفرطُ فيكِ يومًا؟

تقول له: فقدتُ حنانَ الأبِ منذ وعيتُ على هذه الدنيا، فأرسلكَ الله لي أبًا وحبيبًا، بحثتُ فيكَ عن الحنانِ، فلقيتهُ مقرونًا بالحبِّ، فأحببتكَ أكثر! ويقولُ لها: صغيرتي أنتِ، أحببتُ فيكِ روحَ الطفولةِ، ودلعَ البُنَيَاتِ الصغيراتِ، فقسّمتُ مشاعري لكِ حبًّا ورحمةً. أنتِ فلذة كبدي التي ليست من صلبي!

تقول له: أغارُ عليكَ، فتشقيني الغيرة، أرى النساء حولكَ كواسرَ يشهرنَ أنيابهنَّ،

فأودّ أن أضعكَ في قلبي حمايةً لكَ، حتى ولو نهشته تلك الأنياب! ويقولُ لها: ترينَ تلك النساء، ولا أراهنّ! على قلبي وقايةٌ من حبّكِ، وعلى بصري غشاوةٌ. فلا عشقَ إلّا عشقكِ، ولا أرى من النساءِ غيركِ.

تقولُ له: سترحلُ يومًا وتتركني، وسأفقدُ فيكَ اثنين: عاشقًا يحبني، ووالدًا يدللني. سأعودُ يتيمةً كما كنتُ قبلكَ، وسيعودُ البكاءُ عنواني! ويقولُ لها: ومن يقوى على الرحيلِ أصلًا؟ أنتِ لِيَ الوطن، فلا وطنَ لي غيركِ، فكيفَ أترككِ لأتشرّدَ من دونكِ؟ أنتِ لي قلبُ أمي، ومن يخرجُ من قلبِ أمه؟!

إرهاصات جنون!

ساعة تتلو ساعة، ودقيقة تتبع دقيقة، وثوانٍ تتلاحق أبطأ من عادتها لتجعله وقتًا يمرُّ عليَّ وكأنه دهرٌ. لا تزال عيناي معلقتين تجاه المدخل، وكأنهما تستعطفانه أن يُدخل عليهما من أبكاهما كثيرًا. المطعم ممتلئ بالناس بين آكلٍ ومنتظر. جميعهم آتون ويعرفون لمَ، وأنا آتٍ، ولا أعرف لماذا!

كلما لاح ظلٌّ وراء الباب أخذ قلبي يقرع بعنف، حتى ظننته سيفتح باب أضلعي، ويخرج منها ليستقبل من أَحب. ولكنها وللأسف. لم تأتِ بعد!

أخذتُ أجول ببصري في ثنايا المكان، وأتأمَّل من فيه. الكلُّ هنا يأتون أزواجًا، لا مفرد غيري!

بجانبي رجلٌ وامرأة يكتفيان من بعضهما بالنظر المشبع بالإحساس، وباللمس الذي يدفئ القلوب قبل الأجساد. هما لا شكَّ حبيبان، أو حديثا عهدٍ بزواج، فمشاعر الحب تخبو أمام "تعودٍ" يأتي به تكرار الأيام والليالي.

القابعان أمامي يؤكدان لي صحة اعتقادي، إنهما متقابلان لكنّ كل واحدٍ منهما في عالمٍ آخر.

الرجل يأكل بشراهةٍ غير مبالٍ، ولا ملتفتٍ لمن حوله، والمرأة ساهمة شاردة، وممسكة بسكينٍ تقطّع بها رغيفًا أوقعه سوء حظّه أمامها، وهي لا تعي ما تفعل. إنهما يمارسان شعائر الزواج، فروضٌ يؤديها الأزواج إجبارًا لا اقتناعًا، وعادةً لا استمتاعًا.

آهٍ.. لقد تأخرت كثيرًا!

اعتقدتها ستكون أحرص مني على القدوم، لكنّ ظنّي خاب مجددًا.

" هل تريد شيئًا آخرَ؟"

قطع تفكيري ذلك النادل التعس!

إنها المرة الخامسة التي يسألني فيها هذا السؤال.

حسنًا، فليكن أيضًا فنجان القهوة الخامس.

تأملته يسير لتلبية طلبي، الآن فقط لاحظت أنه مجهول بالنسبة لي.

أين فراس؟ النادل الذي أراه دائمًا؟

تابعت التجول ببصري في أروقة المكان، بدا لي المكان مألوفًا أكثر ممَّا ينبغي، أحسُّه وكأنه بيتي الذي لا أبرحه إلَّا نادرًا. غريبٌ أمر هذا الشعور. ألمجرد زيارة، أو زيارتين لهذا المكان آلفه لهذا الحدّ؟! الأضواء خافتة، والموسيقى الهادئة

تمنح الأرجاء بعدًا رومانسِيًّا مدهشًا، لم يبقَ إلَّا هي، فأين هي؟

سحبت نفسًا سريعًا من سيجارتي، ثم أطفأتها، ربّاه! أكل هذه السجائر في المنفضة قد دخنتها بمفردي؟!

الغريب في الأمر أني قد أقلعت عن التدخين منذ أمد ليس بالقريب، أذكر أني قدمته قربانًا في ضريح محبتها حين اشتكت يومًا من كثرة تدخيني. لا شيءَ في الدنيا يستحق أن أغضبها لأجله، ولا حتى أنا. ليتها تأتي لأقبّل الأرض بين يديها، ليتها تصدق بوعدها لأصدق أنا بوعودي لها.

(سأكون شخصًا آخر، وسأفتح صفحاتٍ أُخر).

"القهوة يا سيدي"

قالها النادل، وهو يضع الفنجان أمامي، كم أتمنَّى لو أسكبه فوق رأسه لعله يكفُّ عن إزعاجي.

إنها مُرَّة!

لا.. لا بأس.. بل هي لذيذة.

حقيقةً لا أشك بقدرتي على التكيُّف مع كلِّ ما هو مُرّ، وهو على كلِّ أمرٌ طبيعي لمن لم يرَ من حياته إلَّا وجهها القبيح. أين أنتِ يا أجمل الجميلات؟ لعلَّ الطريق، واختناقاته كان هو العائق، هو تبرير؛ بل هي أمنية. تراءى لي منظرنا ونحن نسير حافيَيْن على شاطئ البحر ذات فجرٍ، يدي بيدها، وكتفي بكتفها، وروحي تتغلغل في ثنايا روحها، ونحن سائران بلا كلمات. مكتفيَيْن بحديث القلب للقلب، وببسماتٍ

تتبادلها الأعين. هذا هو النادل المزعج يتجه إليّ مرة أخرى، ماذا يريد يا ترى؟

- نعم؟

"عذرًا يا سيدي، نريد أن نغلق المحل. إنها الثانية فجرًا!"

عندها فقط لاحظت أنني الوحيد الذي ما زلتُ في المكان!

جميعهم انسحبوا بصمت، وأنا لا زلت أقبع في هذه الزاوية بانتظار طيفٍ لم يأتِ، ولا أظنه يأتي أبدًا.

" حسناً سأغادر"

قلتها، وأنا أهِمّ بالوقوف متّجهًا صوْب الباب، وفي طريقي مررت بشخصين يتهامسان، إنَّه " فراس".. للتوِّ رأيته!

هو يهمس لمن بجواره وينظر إليّ، ماذا يقول يا ترى؟

ادعيت عدم الاكتراث، بينما أنا أصغي السمع للهمس الدائر بينهما.

إنه فراس يقول:

"مسكين هذا، منذ شهورٍ كان على وعدٍ مع مَنْ يحبّ؛ لكنها لم تأتِ، ويبدو أنه أصيب بعدها بلوثةٍ جعلته يأتي هنا كلّ أسبوع في ذات الليلة نفسها، ثم يمارس طقوس الانتظار ذاتها، قبل أن يرجع مغمومًا إلى منزله"، حتمًا فراس يكذب، فهذه هي المرة الثانية، أو الثالثة التي أدخل فيها هذا المكان. والمرتان السابقتان كانتا برفقتها.

إنها هي مَنْ دلَّتني عليه، وهو مَنِ احتضن لقاءنا الأول.

ثم أيُّ حادثٍ هذا الذي يتحدث عنه، وأيَّة وفاة وأيّ فقد؟!

وأيَّة أحلامٍ سوْداويّة طالما أقضَّت مضجعي، فيها سواد موقفٍ بسواد ملابسٍ، بسواد دمعٍ تساقط غزيرًا، مع غيمٍ أسود اكفهرّت به السماء، وقلب غدا مسوَدًّا من عظيم حزنٍ لا يطيق بعضه.

أتراه صادقًا؟ أمِنَ المعقول أن أكونَ بانتظار سراب؟

رحمكِ الله يا مَنْ أحبّ!

نصفٌ منكَ لا يكفي

(لنْ يكونَ هذا أبدًا!)

قالتْ عبارتها تلك، وهيَ تُلقي بنفسها على السرير، وأكملتها بعدما دفنتْ وجهها في وسادتِها، ثوانٍ فقط وبدأتْ دوائرُ البللِ تظهرُ على الوسادةِ التي خضبتها بدمعاتها، كانَ يقفُ مشدوهًا، ذاهلًا، مبهورًا.مُتَوَقَعٌ أن ترفضَ؛ لكنَّ ألمَهُ أنها كانتْ أضعف ممَّا توقَّع.

قد وطّدَ نفسهُ أنها ستصرخُ وتشتمُ وستُجنّ؛ لكن ضعفها المفاجئَ ألجمهُ بلجامٍ

من خجل.

كانتْ تبكي بصوتٍ خفيضٍ أوجعَ قلبهُ حقًّا، بالكادِ يسمعُ نشيجها، لكنَّ جسمها كان يبكي أكثر من عينيها. مُشكلَتُهُ أنه حضَّرَ نفسه حال غضبها وجنونها، لكنَّهُ لم يعمل حسابًا لهذا الاستسلام العجيب.

أمَّا هِيَ، فكانتْ تبكي بكلِّ ما فيها، دوائرُ الدمعِ تحتَ وجهها زادتهُ حرارةً، كلِمَتُهُ الأخيرةُ ظلّتْ ترنُّ في مسامِعها، كانتْ كنصْلٍ أولَجَهُ في أُذُنِها ليُمزقَ قلبها ويقسِمهُ نصفين، ويبعثِرَ كلَّ ذرَّةٍ كرامةٍ كانتْ تملِكُها.

(غدًا يومُ زفافي!)

ما أقسى قلبكَ حينَ صعقتني بهذا الخبر.

لمَ لمْ تتركْ الزمنَ يُخبرُني ذلكَ بطريقتهِ؟ ولِمَ لمْ تكذبَ عليَّ، وتفعلُ ما شئتَ من ورائي؟ كيفَ سوَّلتْ لكَ نفسُكَ فعل هذا بي؟ وكيفَ تجرؤ أن تُصارحَني بهِ؟

مثلي لا يقبلُ شريكًا بمثلكَ، وإنْ كان في الدِّينِ حلالٌ، فهو في شرعةِ المُحبِّين شِركٌ!

كيفَ تظنُّ أني سأتعايشُ مع هذا الأمر؟ أعطيتُكَ حُبِّي كُلَّهُ، ولم أصرف منهُ مثقالَ ذرَّةٍ لغيركَ قبلَ أن أعرفكَ وبعد، وها أنتَ تُقنِعُني بأن أرضى بنصفٍ منكَ!

كيفَ تُقسِّمُ مشاعركَ؟ باللهِ أخبرني، وكيفَ تُسكِنُ قلبكَ شخصينِ مختلِفين؟!

لم يخلقُ الله القلوبَ بغُرفٍ، وأجنحةٍ لِتُسكِنَ فيها من شئت، وإن كُنتَ صادقًا في

حُبِّي، فكيفَ تُحِبُّ غيرِي؟!

أجزِمُ أن حُبَّها يستعمرُ مكانًا آخرَ في جسدكَ غيرَ قلبكَ، وأنَّ دافعَكَ الغريزة لا الحبّ، إنْ كان ذلكَ حقًّا، فها أنتَ تهبطُ بمشاعركَ إلى الدركِ الأسفل، وها أنتَ تنساقُ مغمضَ العينين وراءَ غرائزكَ مُتناسيًا قلبكَ، وعقلكَ قبلًا. عُذرًا، فلنْ أرضى العيشَ مع نصفٍ منك. إمَّا الكل، أو فالعدمُ أفضل!

قلوب لا تُنبتُ الحُبّ

تعسًا لمن ساقتهُ أقدارهُ، ونكادةُ دهرهِ إلى صحرائهم، وبئسًا لمن تكسّرت أمواجُ شوقهِ على صخرةِ جمودهم وبلادةِ مشاعرهم.

حين تصبحُ عباراتُ الحبِّ، ولواعجُ الغرامِ التي يُنشدها حائرةً لا تستدلُ هدفها، ويغدو كالمغني على جوقةِ الصمِّ، والمتزيّن لجماعةِ العميانِ، وكمن يزرعُ أشواقهُ حَبًّا في قلوبهم، ويتعهدها بالرعايةِ، ويسقيها بماءِ عينيهِ، ثم يفاجأُ

Notes

[←1]

قصيدة الأطلال، إبراهيم ناجي.

لكل جديد وقديم وكل ما هو نادر

من كتب ومجلات ومجلدات

تابعوا دوده الكتب

T.ME/BOOK100100

FACEBOOK/BOOK100100

موقعنا

www.doda100100.blogspot.com